عبد الرحمن صدقي

الشاعر الرجيم

بودلير



دار المعارف

اقرأ

[٧]

الشاعر الرجيم

بودلير

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



تصدير

ليست هذه بالترجمة الخالصة لحياة بودلير ، ولا هي بالدراسة النقدية الخالصة لشعره ، ولكنها الشيئان معاً . وإذا صح أن كان بين الفنانين من قام موضوع فنه بمعزل عن موضوع حياته ، فإن بودلير من ذلك في القطب المقابل والطرف النقيض . فالفن هنا وحياة الفنان كل لا يتجزأ . ولعل الرجل والشاعر لم يمتزجا في أحد امتزاجهما في بودلير . فلن نعرف الرجل حق معرفته إلا إذا تأملنا في شعره ، ولن نقدر الشاعر قدره ونفهم ما يقول على وجهه إلا إذا اطلعنا طلع حياته ووقفنا على خبره .

ولا شك في أن هذا مطلب مزدوج . ولكنه كان على ازدواجه يكون هيناً سهلا لو أننا بسبيل رجل غير بودلير وشاعر غير بودلير . فلقد شاءت الأقدار المعاكسة — في جملة ما شاءت في نكايته — أن يدرج الذاكرون له من أهل زمانه على رواية أشتات من الأقاويل عنه ، انتشرت له منها شهرة سيئة ، وانطبعت له في أوهام الناس صورة منكرة . وكان هو نفسه أحرص الجميع على تهجين سمعته وتشويه صورته ، وكان أوفرهم سهماً في إشاعة الشناعات عن سيرته ، والتهويل بخبايا دخيلته ، ولعاً منه بالتلبيس والإيهام ، والتذاذاً باللعب بعقول السادة الجامدين ، وترويع دعتهم والعبث باحتشامهم وتزمتهم . وجاء جيل الشباب — وهم بطبعهم مدفوعون إلى الثورة — فاستطيروا إعجاباً بهذه المواقف من (الشاعر الرجيم) ، وتمثلوه في صورة الشيطان المفسد ، خدن الشر وداعيته ، فارس الظلمات المستهتر بالأقداس والحرمات ، الناقم على الأرضين الساخر بالسموات . وكثر بينهم المقلدون لهذا المثال الذي نصبوه . وشأن المقلدين الذين لا تخدمهم قريحة ولا يرجعون إلى سليقة أن يترخصوا في المحاكاة فإذا هم يشبهون

عبقريهم ولكن من جهة سوآته ومعايبه ، وهم يشتطون فيها ويغالون لأنها كل بضاعتهم ، فلا يلبث أن تلصق بظلمة شبحه ظلمات أشباحهم ويختلط على الناظر سيماؤه بسيماهم .

هذا بودلير الرجل من ناحية سيرته ، ولا يختلف عن ذلك شأن بودلير الشاعر فى مجموعة أشعاره . فهو وإن كان يصدر فيها عن حسه ، ولا يخرج بها قط عن شخصه ومشاكل نفسه ، ومع ما التزمه فيها من صدق كصدق الاعتراف ، كان صاحب فن خلاّق يتصرف فى الشكل ، ويبدل فى الوضع ، ويلفق الأزياء ، ويؤلف بين الأشتات ، على موجب صنعته ، ومقتضى قالبه ، تحرياً للأثر الفنى الذى يتوخاه .

فلا جرم تكون المهمة الملقاة على الكاتب ليست — كما قد رأى القارئ — بالمهمة اليسيرة التى لا كلفة فيها عليه ولا عناء ، إلا أنه قد أسلس أمرها وهوّن صعبها ذلك الفيض من المؤلفات التى تدور حول بودلير ، والتى ما برحت متلاحقة متواترة منذ القرن الماضى إلى وقتنا ، والتى نجد بين أصحابها من وقفوا حياتهم وقصروا همهم على تحرير أخباره ، كما توجه الأكثرون إلى تحليل أشعاره وسائر آثاره الأدبية . وذلك أصدق الشهادة على أن المستقبل له ، وعلى أنه كما قال عنه فكتور هيجو — وكأنما قال هذه المرة عن تلقين الغيب — الشاعر الذى سرت منه فى الأدب انتفاضة جديدة .

عبد الرحمن صدقى

صوت من وراء القبر

قبل أن نكشف عن حياة بودلير بما فيها من عُرف ونكر ، ونستجلى فى أغوارها السحيقة ما تنطوى عليه من سر ، وقبل أن نفتح ديوانه الموسوم بـ(أزهار الشر) ونستنشى منه الفاغم الحادّ من غريب العطر ، نرى لزاماً علينا أن نتنحى ليكون بودلير البادئ ، فيقول كلمته من وراء القبر [1] إلى القارئ :

أيها القارئ المطمئن الوادع

يا رجل الخير ، السليم الطوية ، القانع

اطرح من يدك هذا الكتاب

هذا الكتاب المستهتر الفاجع

* * *

إذا كنت لم تتلقن فنون البيان

على النقيب الماكر الشيطان

فاطرح كتابى ، فاست واعياً منه شيئاً

أو أنت معتقد بى لوثة العقل والخبال

* * *

---

(١) هذه القصيدة من أشعاره المتأخرة ولم تظهر إلا فى طبعة ديوانه التى ظهرت بعد وفاته .

أما إذا استطاع طرفك — غير مفتون —
أن يمعن فى الأغوار
ويغوص فى اللجة إلى القرار
إذاً فاقرأنى تتعلم محبتى

* * *

يا أيتها النفس المتطلعة
أنت يا من تألمين فى الوجود
وتحومين باحثة عن فردوسك المفقود
ارثى لى ! . . . وإلا عليك لعنتى

ميلاد شاعر

« أنا إنسان مريض شنيع الطباع ، والذنب فى ذلك ذنب أبوى .
ومن جراهما يسرع البلى فى نسجى ، وتنحل عراى ، وترث قواى .
ذلكم شأن من يولد من أم فى السابعة والعشرين ، وأب طاعن فى الثانية
والستين . فتأمل يا صاح . خمسة وثلاثون عاماً بين الاثنين . تقول إنك
تدرس علم البنية وتركيب الطبائع على كلودبرنار ، ألا فسائل أستاذك
عما يرى فى الثمرة المتقحمة الحاصلة عن قران كهذا القران » .

هذه الإشارة الأليمة من خطاب كتبه بودلير سنة ١٨٦٤ إلى بعض
أصحابه ، وهو يطالعنا فى هذه الألفاظ القلائل بمأساته الفاجعة ويزيد
فى فجاعتها أن الضحية مدركة واعية لنوع الجناية وكنهها وأنها عميقة الشعور
بما يربطها بجناتها . وفيما يلى بسط لهذه الإشارة وتفصيل لمجملها .

كانت كارولين ديفايس (Caroline Dufays) أم الشاعر أقرب إلى
الملاحة الجذابة منها إلى الجمال الرائع ، ريانة الصبا ، ولكنها رقيقة المزاج
غير عامرة البنية . وكانت لطيفة الشعور إلى حد يشبه أن يكون مرضاً ،
ثم هى يقظى الحس ، مشبوبة العاطفة.وكان لكارولين بالأبهة وفاخر الزينة
ولع شديد كاد يكون مشغلة ووسواساً مسلطاً . وذلك أنها فى سنى حياتها
الأولى حرمت حتى وسائل الراحة وأسبابها . فقد تيتمت صغيرة ، إذ مات
عنها أبوها الضابط الملكى الذى ألجأته الثورة الفرنسية إلى الهجرة فى جملة
من هاجروا إلى إنجلترا حيث كانت وفاته بعد سنوات قلائل من ميلادها
فى لندن من أمها الإنجليزية . فكفلها صديق من أصدقائه الأولين من
رجال المحاماة الموسرين ، كانت له فى ذلك الحين — عهد الإمبراطور

نابليون ــ دار كبيرة فى باريس ومصطاف خلوى فى الريف ، وكان من رزقه ومن بيته بمتسع ، فاتخذ الصغيرة اليتيمة رفيقة لكريماته ، ولا شك فى أنها تقدر للرجل صنيعه وتعرف له حق نعمته ، إلاأنه لا شك أيضاً فى ألمها الدخيل حين كانت تقابل بين حظها وحظهن ، وترى اقتناءهن لما يشأن من فاخر الثياب دون نظر إلى الكلفة ، وكيف يخطب ودهن أرشق فتيان العصر من أجل المال المرصود لصداقهن ، على حين لا معول لها على غير وسامة طلعتها وميسم حسنها الطبيعي . ولما كانت سنو الثورة وحروب نابليون قد أفنت الكثير من عتاد المال ، وألحقت التلف والضياع بثروة معظم أصحاب الثراء ، فقد كان الشباب وقتئذ منصرفين ــ كانصرافهم اليوم ــ عن تحميل أنفسهم عبء الزوجة لامال لها ، وكان الزواج إنما يتخذونه معواناً لهم على ما يسمونه ــ ونسميه اليوم ــ كفاح العيش . فلاغرو أن تبلغ كارولين ديفايس الخامسة والعشرين من عمرها ولما يتقدم طالب زواج بها ، وقريباً ينقطع كل أمل لها فى الزوج أيا كان . فهى غير مختارة ولا مطمع لمثلها فى زواج بمن تحب : وإذاً فلا معدى لها من أن تخفض جناحها وتطأطئ من إشراف أحلامها وترضى بما تجد .

وكان بين الزوار الذين يختلفون على تلك الدار أرمل كهل هو فرانسوا بودلير (François Baudelairc). شيخ ظريف الهيئة ناصع الشيب ، له شمائل أهل البلاط فى العصر القديم وفرط أدبهم . ولعل ذلك كان بحكم اتصاله بأسرة الدوق شوازيل براسلين (Choiseul Praslin) مربياً لنجليه فى عهد الملكية الأولى إلى قيام الثورة . وكان مقام هذه الأسرة النبيلة فى قصر جميل له حديقة غناء تنحدر كالدرج حتى ضفة السين قبالة قصور التويلرى . وكان يقوم فى طرف هذه الحديقة على مقربة من النهر منزل أنيق يزدان بالتحف الفنية من روائع المجموعة التى يقتنيها الدوق . وقد شاء الدوق أن يجعل إقامة الأستاذ المربى وتلميذيه فى هذا المنزل ،

وجعل له الحرية فى أن يحيا فيه الحياة التى يرتاح لها كما لو كان هو رب البيت . فكانت له مركبته الخاصة به ، وخدمه المنصرفون لخدمته ، حاجاته مكفية ، ورغائبه مقضية ، وله فوق ذلك مائة وستون جنيهاً فى العام ، وهى تعدل ضعفها أو ثلاثة أمثالها فى وقتنا . فالرجل كان يحياهنا حياة السيد الآمر ، يأدب المآدب متى يشاء ، ويدعو من يشاء ، وكثيراً ما كان يدعو إليها الدوق والدوقة . فهو لم يكن قط عند القوم بموضع المأجور الممتهن . وأبلغ من هذا فى الدلالة على مروءة الرجل وشعوره بالكرامة أنه : وقد ارتضى أن يبيعهم تعليمه ، لم يخطر له أن يدخل فى الحساب رأيه ، فاحتفظ باستقلال تفكيره عنهم . فهو من أنصار الحرية ، تجمعه الصداقة بالعلماء من دعاتها . ولعله لم يكره من الثورة حين شبت إلا شططها وفظائعها . بيد أننا نعود لنقرر أن اتصاله بهؤلاء السادة الاستقراطيين كان له من بعض الوجوه أثره ، ففى هذه البيئة نما عند فرانسوا بودلير تذوقه للترف وأبهة المظهر ، وقد أورث هذا الذوق مضاعف الفائدة لولده بودلير ، كما أنه أورثه حب الفنون ، فإن فرانسوا كان من هواتها ، يقضى الجانب الكبير من أوقات فراغه فى نقل ما يقتنيه الدوق من صور لمشاهير الفنانين ، بل كان يحلم بأن يكون فى يوم من الأيام مصوراً ، ويعد التصوير عمله الذى خلق له ، وقد اتصلت أسباب المودة بينه وبين بعض أصحاب المواهب من المثالين والرسامين فى عصره . وكان يجيد الرسم بالقلم الملون وبالألوان المائية . وكانت موضوعاته المحببة هى الوجوه البشرية والأجسام العارية . ومهما يكن من نسبة هذه الأشكال إلى ربات الأساطير وبنات الخيال ، فإن هذا الإقبال منه — حتى فى كبره — على تشكيل الأعطاف اللدان والقسمات الحسان شاهد على نزعة حسية ومزاج شهوى ، يكسوهما الخلق المهذب والروح الفنية ، ومصداق لما يقال من أن حياته الجنسية كانت حتى الرابعة والأربعين حياة الفنان فى

اضطرابها وانطلاقها ، وإن لم تكن كذلك حياته الاجتماعية .

وقد أثر عن فرانسوا بودلير وفاؤه لسادته وأصدقائه ، وتخليصه أموالهم ، واستنقاذه لأعناقهم ، وعدم إسفافه فى عهد من العهود . ومع كل هذا فقد ساعده اتزانه على تجنب المزالق فى سياق التقلبات السياسية من ملكية آل بوربون إلى مجالس الثورة ، ومن إمبراطورية نابليون إلى عودة الملكية . فخرج فى آخر المطاف بمعاش جليل ، فضلا عما آل إليه فى زواجه الأول من أراض وضياع . ومضت على ذلك بضع سنين ونيف الشيخ على الستين ، فإذا العزوبة تثقل عليه فى تلك السن المتأخرة ، وإذا به متطلع فى زياراته إلى تلك الصغيرة كارولين التى أصبحت اليوم ثمرة شهية طيبة . فهو يتبعها نظره وعطفه ، ويدعوها من حين إلى حين « يا ابنتى ! » ليطمئن له طائرها ويأمن جافلها ، ولعل تطاول الأيام بها من غير أمل فى خاطب قد هدى الشيخ إلى موضع ضعفها فأخذ يعمل على ترويضها . ولعله كان المرة بعد الأخرى يسائلها مضايقاً وممازحاً : « خيراً يا فتاتى ! أما تزوجت بعد ؟ ألا فصدقينى ، سينتهى الأمر بنا إلى أن يتزوج أحدنا الآخر » ، وما كان ليفوت باقعة مثله أن يحدثها عن أخبار ضيعته وأوصافها وعن موارده ومقدارها ، لتتمثل الطمأنينة والدعة فى كنفه . ثم هى لما تزل تذكر — وهى مأخوذة — أنه كان منذ سنوات يأتى إلى الزيارة فى مركبة عليها طراز مرسوم ، وبين يديه التابع الوصيف بشعره الأبيض المستعار وشرائط الذهب على منكبيه ، وكيف كان التابع يظل واقفاً خلفه فى العشاء قائماً على خدمته على عادة السادة فى تلك الأيام . ولم تكن قد عرفت أن المركبة إنما هى كما تدل شارتها مركبة مجلس الشيوخ الذى كان وقتئذ من كبار موظفيه الإداريين ، وأن التابع كان ساعى المجلس لتبليغ الدعوات عند الاقتضاء . هذه المظاهر كلها فعلت فى نفس كارولين الساذجة فعلها ، وهى كما رأينا كسيرة الجناح مضعضعة القوى المعنوية ،

من أثر الملابسات القاسية وظروفها غير المؤاتية . وكأننا بالشيخ وقد اغتنم مقدم الربيع ، وجعل يطوف معها في مماشي الحديقة ، وقد تبرجت الطبيعة وأخذت حفل زينتها ، حتى سكر حسها وفاضت بدواعي الشوق نفسها المحرومة . فلما أن خطبها الشيخ أخيراً إلى عائلها لم تؤخذ على غرة فلم ترع ولم تمتنع .

وقع هذا الزواج في التاسع من سبتمبر عام ١٨١٩ . ولحقت كارولين بزوجها في داره العتيدة التي اتخذها منذ اعتزاله الوظيفة . وهي دار متقادمة العهد مجددة ، ويفضي إليها من مدخل كبير مقوس ، ولا تزال بها مخلفات من العمارة القديمة كالأبراج الصغيرة في أركان البنيان ، ثم تلك الحديقة العميقة ذات الدوح المعمر ، وارفة الأفنان ، غاطة الظلال يفوح منها في أيام الخريف المطيرة رائحة الطينة الحرة العتيقة .

وأما أثاث الدار فكان مثل الدار نفسها ، بعضه مما خلفته امرأته الأولى ، وبعضه مجدد . على أن أظهر ما كان بالدار من زينة ذلك الحفل من التصاوير بالألوان المائية والأصباغ المائية الصمغية والأقلام الملونة التي نقلها ، وطائفة من الرسوم المحفورة المحكية ، ونماذج من تماثيل الأقدمين . فهي بالإجمال وقبل كل شيء دار فنان . وأكبر الظن أن كارولين كانت تدرج منكسة الطرف من الحياء بين هذه الصور المتعرضة المتجردة ؛ بين الزهرة ربة الجمال ، وأبولو رب الفنون وراقصات باخوس وما إلى ذلك مما في الأساطير الوثنية من مظاهر لعبادة الحياة والجمال . إلا أنه في وسط هذا الغمار من المرح الوثني كان لكارولين صورة من الصور الدينية المسيحية علقتها لتستنزل بركتها وتأنس بها من وحشتها .

وكان ضيوف فرانسوا من أحرار الفكر ، لا يتحرجون من تناول الكنيسة ورجالها بسوء القول أمام الزوجة الشابة ، وكان يتعاظمها هذا الأمر

ويجرح عزتها ، ولكنها لم تكن لتجد من نفسها الجرأة على مراجعتهم والاعتراض عليهم ، فكانت تجمد وتحتجز عنهم ، لا يضعف لها إيمان ولا تتزعزع عقيدة . وكذلك كان زوجها وأصحابه فى السياسة أيضاً من أنصار الحرية ، لا يؤمنون للملوك بحق إلهى ، وإن لم يذهبوا فى الثورة مذهب المتطرفين. أما هى فكان هواها أجمع مع الملكية ، إذ ما من شك فى أن والديها قد أفزعا أحلامها فى المنفى وهى صغيرة بما كانا يقصانه عليها من فظائع الثوار ، حتى صارت كلمة الشعب تحمل صورة الأفواج من الهمج شاهرى السيوف والحراب يعجون ويضجون فى طلب الدماء .

بيد أن هذا كله لم يكن له شأن فى الحياة الزوجية . فقد كانت حياة الزوجين وادعة هادئة ، ولولا تفاوت السن لأضفنا أنها كانت عندهما على السواء سعيدة هانئة . ولقد كان فرانسوا حفيا بها ، شديد التلطف معها ، خافض الجناح لها ، حريصاً على مرضاتها . ولم يزل بعد الزواج كما كان قبله ظريف المحاضرة ، جم التأدب ، ولم يتغير خطابه لها ، ولم يفكر قط فى أن يخدعها عن سنه ، وما وراءه من ماض طويل ، فكانت إذا روت له خبراً يقول مقالة الشيخ الذى استوفت تجاربه وامتلأت كأس حياته : « هذا الذى تروينه — يا بنيتى ! يعيد إلى ذاكرتى كذا وكذا من أحداث العهد الخالى » ، ثم إنه لاشتغاله بها ، وشدة إقباله عليها كان طيفها يكاد يحجب عنه طيف « كلود الفونس » ابنه من زواجه الأول وهو إذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره . ولعل كارولين كانت تسد مسده لمقامها عند زوجها الشيخ مقام الزوجة والابنة معاً .

وكان القائم على تدبير المنزل خادمة فرانسوا فى أيام العزوبة . وقد سلخت فى خدمته سنوات طوالا. فهى بحكم العادة تستبد بشئون البيت استبدادها الأول ، جادة مخلصة كأن الأمر لها ، ولا غرو تحس كارولين أحياناً أنها كالقاصر تحت كفالتها ، ولا تملك أحياناً بوادر غيرتها .

وكانت كارولين فى حديثها مع زوجها تدعوه : « يا صديقى ! » — ولم يمض طويل وقت على زواجها بصديقها الشيخ حتى راعها أنها حملت ، فهى حين ارتضته زوجاً إنما استجابت لداعى العقل ولم تخطر لها الأمومة ببال .

وفى ظل وارف من الحنان المضاعف من هذا الأب الشيخ الفنان وهذه الأم الحية الوجدان ، عاش الطفل أيام طفولته التى لا ينساها فى مثل نعيم الجنان .

عهد الجنة الأولى

كان ميلاد الطفل فى التاسع من إبريل ١٨٢١ واختير له اسم شارل بيير بودلير. وما نظن بالقارئ حاجة إلى الإطناب فى وصف ما داخل الشيخ فرانسوا بودلير من السرور، وما استطاره من الابتهاج، وأخذه من هزة الطرب، حين رزق ابناً بعد أن أربى على الستين. فهو شديد الاهتمام به، يحمله فى ذراعيه، ويرعى خطاه الأولى، ويقف به أمام الصور التى تزدان بها الجدران. فيتلقى الطفل عن البقع المبرقشة سحر الألوان، ولعله كان حين يلقنه المفردات يعمد إلى تقريبها بأن يرسم له ما تمثله من المحسوسات، حتى تيقظت حواسه للأشكال وتكوين الأجسام ثم كانت بعد ذلك نزهتهما فى رياض لكسمبرج وهو ممسك بجمع يده الناحلة المعروقة، يد طفله الدقيقة الصغيرة، وكلما جازا بتمثال من تماثيلها الكثيرة شرح له قصته العجيبة، حتى نشط خياله الناشئ فى وسط هذه الطبيعة الجميلة العامرة بأروع الأرباب وأجمل الربات، وعاش صباه الأول بين أساطير الوثنية المتفننة البديعة. وهنا أيضاً درج الطفل «يلاعب الريح ويخاطب السحاب» فى حجر الطبيعة :

«تلك الذئبة الممتلئة الصدر بالحنان العميم»

«تشبع بالأفاويق من ثديها الأحوى جميع العالمين»

ولا شك فى أن الناظر إلى هذا الوالد وابنه كان يحسبهما جدا وحفيده فإن كفيهما المتعاقدتين يصلان القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، وبينهما تلك الشقة الواسعة من طوال الأعوام الحافلة بالأحداث الجسام. ولقد ادخر الطفل — فيما ادخر — ذكريات هذه الجولات مع أبيه وهو

ابن خمس سنين فى رياض لكسمبرج . فكان حتى آخر أيامه يكثر من التحدث عنها إلى خلانه ويطيب له ترديدها فى مجالسه والإشارة إليها فى شعره . وأما فى البيت فكان ما يتلقاه الطفل من المشاعر أكثر تعقداً . فقد كان يجد نفسه أمام لغز غامض من نوع العلاقة بين هذه الشابة الناعمة فى نضرة الحسن وميعة الصبا وهى أمه ، وبين هذا الشيخ الطاعن فى السن الذى لم يبق له من سواد الشعر إلا حاجباه ، وهو أبوه .

وكان يتبلبل خاطره وتضطرب حواسه من ذلك البريق يؤج فى نظرة الشيخ إذا هى اتخذت زينتها وتحلت بأبهج حللها . وكذلك حين تدعو زوجها « يا صديقى » وتتصرف معه تصرف الارتباك والدلال معاً .

ثم من ذا يكون هذا الفتى الطالب فى معهد الحقوق الذى يقدمونه إلى شارل على أنه أخوه ، والذى تقل زياراته لهم عاماً بعد عام ، والذى يدعوها مرة « يا أمى » ومرة أخرى « يا سيدتى » على حسب أغراض الكلام ومقتضياته ! وكيف كانت أسارير الشيخ تنبسط لهذا الحديث حيناً وتنقبض له أحياناً .

فإذا كان الليل جملته الخادمة ما رييت إلى غرفة نومه بعد أن يتلقى من أبيه مسحة على شعره ثم قبلة من أمه . ولكنه ما يكاد يستقر فى الفراش حتى يطلب أمه ، ولا يغتمض له جفن حتى تعود إليه فتقبله ثانياً . وكانت الخادمة مع ما عرف عنها من غلظة الطبع تضمه عندئذ ضمتها الشديدة وهى تتمتم : « يا له من طفل عصبى ! »

هذه كانت حياة الطفل مع والديه . وظاهر منها أنسه بأبيه الذى لا خلاف فى أنه أخذ عنه ميوله الفنية . وظاهر منها كذلك شدة شغفه بأمه الصبية التى رأينا تعقد حياتها النفسية قبل الزواج وبعده . كما أننا نلمس فيها جو المناقضات والمعميات والخوالج الخفية التى عاش فيها الطفل فنبهت ولا ريب فيه ملكة التطلع والملاحظة والتحليل التى تناهت به

إلى غايتها الأثيمة فى مستأنف عمره .

فى هذه الأسرة الصغيرة ، فى اليوم العاشر من شهر فبراير سنة ١٨٢٧ وقعت على البغتة مأساة . لقد خر الشيخ بودلير إلى جانب المصطلى ميتاً بالسكتة من أثر انفجار فى أوعية المخ الشعرية .

وكان شارل لم يستوف السادسة من عمره ، وقد بدأ فى هذه السن يعرف لأبيه شدة التعلق به والعطف عليه ، فهو يبادله الشعور ، ويكن له من مشاعر الإجلال والمحبة البارة ما يشبه العبادة الحارة .

ونحن فى غنى عن القول إن الطفل حزن على أبيه ، وصلى من أجله ، وردد كسائر الأطفال متعزياً أن أباه رجع إلى السماء . ثم كان من الطبيعى أن يجعل من بعده كل عزائه فى أمه التى أصبحت كل شىء عنده ، كما كان هو كل شىء عندها . وهذه هى أمه اليوم تحتضنه أكثر من ذى قبل وتغمره بعطفها ، ثم هذه هى قبل أن تفارقه إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية لها تقتضى غيابها أسابيع ، لم تتمالك نفسها أن أسمعته — وهى تبكى — أعذب ما قدر له أن يسمعه من تحبب ونجوى .

وفى أثناء هذه الغيبة تولته الخادمة العجوز مرييت ، فبالغت فى العناية به ، والحدب عليه ، وأسرفت فى تدليله ، ومتابعته على ما يريد . لقد ملكته أمره ، فلا عليه ألا يرعى حدا ، ولا يؤدى واجباً ولا يحفظ درساً ، وهو وشأنه يجرى راكضاً على قدميه ، أو راكباً عجلته فى عرصات الدار وحجراتها الواسعة المهجورة ، يتناول كل شىء وينظر فى كل شىء ، ويفتح الأضابير المشحونة بالصور فينثرها على أرض الغرفة ، يتصفحها واحدة واحدة ، وهو كالنشوان ، وإنه ليكاد يذهل عن نفسه ، ويخرج عن حسه ، وهو يتأمل المجموعة المنقولة عن آثار مدينة هرقلية المهداة إلى أبيه من أوليائه الأولين ، والتى حرمت عليه أمه أن تمتد إليها يده ويقع عليها نظره ، لما تمثله من مناكر الأعياد والمراسم الوثنية .



مثال للجمال الكلاسيكي

بريشة الشاعر

طابت نفس شارل بهذه العيشة الطليقة ، فهو هانئ سعيد ، فما هو إلا أن تعود إليه أمه فتبلغ سعادته منتهاها ، وتستوفى غاية مداها ، وقد عادت الأم ، وكانت تخشى أن تموت بعيدة عن ولدها ، فتحول هذا الإشفاق منها على نفسها رقة له وحناناً عليه، فضلاعن أنه اليوم لا مهوى غيره لفؤادها ، فهو كل ما بقى لها . وكانت تقضى بعض أوقاتها معه فى تعليمه اللغة الإنجليزية لغة أمها .

وبالنظر إلى ما صارت إليه مواردها بعد موت زوجها ، انتقلت إلى دار صغيرة أقل كلفة ، وفى هذه الدار الصغيرة ، ذاق شارل النعيم صفواً غير مرنق . فأمه اليوم تنظر إليه غير النظرة الأولى ، وتناجيه بصوت أشجى مما كان ، ولا تمل تقبيله وتدليله ، وهو قد استعذب منها هذا التدليل والتقبيل ، وتلقى متفتح الجوارح هذا الفيض المتوهج من هوى المرأة المكبوت . فاستغرق فى هذا الجو العاطفى الذى انطبع أعمق انطباع فى حسه المستوفز الباكر ، حتى ليدهش المتتبع لكتاباته من أنه لا يذكر هذا العهد (عهد حنان الأم) إلا كما يذكر العاشق مواقف عشقه ومعاهد صبابته ، متلهفاً على تلك الجنة الناضرة من صبوات طفولته ، حتى لنجده بعد ثلاثين سنة — فى خطاب له إلى أمه — يشير إلى تلك الأيام بقوله « تلك كانت أيام نعيمى » .

ولقد تكرر منه فى مستأنف حياته الحديث عما كان يجده وهو طفل ، من لذة فى ملامسة ثياب الحرير التى كانت ملبس أمه الدائم ، وفى مصافحة الفرو الوثير الذى كانت تؤثره ، وفى شميم مساحيق زينتها ، وشذا عطورها . على أنه ليس من مقتضى ذلك أن تكون هذه الحال حجة على بوادر الانتكاس فى طبيعته ، ومثالا من الأمثلة على ما لم يفتأ يلوكه « فرويد » وأتباعه أصحاب مذهب التحليل النفسى فى نظريتهم المرموز إليها بمركب أوديب (Œdipus Complex) . فالأمر هنا لا يعدو

أمر معظم الأطفال ذكوراً وإناثاً ، فإن زينة أمهم الحبيبة توقع فى نفوسهم أول اهتزاز للجمال ، وأول إعجاب به ، وهم فيما يجدون من ذلك متفاوتون بقدر إحساسهم وأطواره ، وليس من شك فى أن بودلير كان من الأطفال ذوى الإحساس الباكر الذى يعز مثاله ، ولا تجرى العادة بمثله .

ولا يمنعنا هذا من القول ، بأن ذلك اللعب من الأم بمشاعر وليدها ، وذلك الاستحثاث لعواطفه نحوها ، من الأمور التى كان لها فى متصرفاته فى مقبل الأيام أعمق الآثار والمعقبات ، وليس يخطئ من يرد إلى ذلك الكثير مما دخل على طبيعة إحساسه وما صار إليه تطور مزاجه .

أول العهد بالجحيم

على قدر السعادة التى كان الصبي شارل مستغرقاً فيها ، كان وقع الفجيعة التى نزلت بساحته ، والنكبة التى انصبت على رأسه من حيث لم يحتسب .

استقرت مدام بودلير وولدها أخيراً فى دار ثالثة بموجب الاقتصاد فى النفقة . إلا أنها لجأت من حر ذلك الصيف إلى بيت أبيض صغير ولكنه هادئ فى ريف باريس . وكان للبيت جنينة يستتر بأغصانها تمثالان عريانان من الجص ، أحدهما لربة البساتين والثمار والآخر لربة الجمال والهوى ، وعلى النوافذ أستار من الصوف الغليظ تضطرم فى وهج الأصيل . والبيت الصغير مستكن بين الشجر كأنما هو عش لخلوة إلفين عاشقين . وكان الصبي أسعد ما يكون فى هذه الخلوة بأمه ، محبوساً كالمحب الغيور وإياها ، ممتزجة أنفاسه بأنفاسها ، يقضى الوقت متطلعاً فى شتى الصور من مناظر طبيعية ومصورات جغرافية ، مسنداً ذقنه إلى راحتيه ، وإلى جانبه الأرملة الشابة تطرز وهى صامتة مفكرة . إنها له .

وانقضى الصيف ورجعت مدام بودلير إلى دارها الأخيرة بباريس وقد اتفق أن كان يقطن إلى قريب من سكنها ضابط وسيم هو القومندان « أوبيك Aupick » ولا شك أنه جاز بها مرات فى الطريق ، ووقعت فى نفسه . فحياها ذات مرة فردت ولا شك بانحناءة لطيفة برأسها أو ابتسامة خفرة ، ثم اتصلت بينهما المعرفة . وبدأ القلق يساور شارل من زيارات الضيف الجديد ، ممشوق القامة فى زيه العسكرى ، متزن المشية ، تستقر عيناه الزرقاوان بالنظرة الطويلة الثابتة فى عينى أمه . كمن له عليها سلطان .

وكان «جاك أوبيك Jacques Aupick» يمت بعرق إلى الأرومة الإنجليزية من ناحية أمه . فتهيأ لكارولين أن تبادله أحياناً بعض كلمات بالإنجليزية تفوت إدراك شارل وقتئذ . فهو يمتلىء من ذلك غيظاً ، ثم إنه يكاد لا يتعرف على أمه فى محضر من هذا الضيف . فإن عاطفة جديدة تداخلها ، وتغير من هيئتها . فهى مع هذا الرجل غير ما كانت مع أبيه وغيرها معه :

وبالغ الضابط فى ملاطفة الصبى ، ومحاسنته ، وإظهار أجمل المودة له . وأطرى عند أمه ذكاءه وحسن فهمه. ولكن هيهات . . . إنه يأنس فيه غريماً مزاحماً ، ونفسه تحدثه بأنه المغلوب على أمره ، وفى ذات يوم قالت الأرملة الشابة لابنها : « أنت الآن فتى كبير ، فكن عاقلا كعهدى بك . إن من الأمور مالا تملك الأم إمضاءه على الوجه الأتم ، مهما يكن من حدبها على ابنها وسهرها عليه . وذلك لا لشىء إلا أنها امرأة . فأنت محتاج إلى رجل يأخذ بيدك ، يرشدك ويقوم على تعليمك ويهيىء لمستقبلك . أنت محتاج إلى أب آخر ». وانتفض الفتى فاستدركت « إلى صديق . . . ستدعو القومندان يا صديقى ، أليس كذلك ؟ تعاهدنى؟ وسوف يكون لك القومندان خير صديق » . قالت الأم هذا أو شيئاً قريباً منه . فلم ينفذ شىء إلى موضع الاقتناع من ابنها . فللصغار أحياناً إحساس غامض بحقائق الحب . فهو يحس أنها استجابت للضابط لأنها تحبه .

وفى الثامن من نوفمبر ١٨٢٨ ، أى بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على وفاة أبيه ، عقد زواج أمه الشابة على الضابط الشاب جاك أوبيك ، فالصبى مهتاج ثائر النفس . لقد خانته المرأة التى أحبها . لقد خانته . وهو غيران ، غيران تأكله الغيرة من القومندان . وليس فى هذا التعبير مبالغة . فإنه ليروى — فيما رواه من ذكريات — أنه فى ليلة العرس نفسها استولى على مفتاح الحجرة المعدة للعروسين ، ومضى إلى حوض فى بعض

المتنزهات المجاورة ، فألقى فيه بالمفتاح ، وهو يجد فى قلبه برد التشفى إذ يتمثل الحداد يستدعونه ليحتال على فتح الباب ، والزوج المحب ذاهب الصبر ملهوف ، والزوجة ممتعضة مهمومة . . .

ولا يبعد أن تكون هذه الواقعة غير صحيحة ، ولكنها كانت على الأقل من خواطره وأوهامه . فهى على كل حال مرآة صادقة للألم الذى كان يحز فى نفسه ، ويلعج فؤاده ، ويمزق حشاه ليلة الحادث . ويخطئ من يحسبه عرضاً يزول . إنه كان خطب الحياة عنده . فلم يعرف شارل بعده طعم الهناءة . لقد عرفنا الصبى شارل من قبل حساساً عصبيا مشبوب العاطفة . وهو اليوم ذلك الصبى النفور المستريب ، الذى لا يطمئن إلى أحد ، القليل الكلام الطويل الصمت ، ذو الوساوس والبدوات . ومن الصبيان من يكون ذا شخصية غاشمة لا يطيق أن يرى نفسه مهملا أو مزحوماً بشريك ، فلا بد له من الاستحواذ على من حوله والاستئثار باهتمامهم والتملك وحده على عقولهم وقلوبهم . فليس الذين يحبهم إضافة زائدة عليه ، بل هم جزء لا ينفصم من كيانه ؛ ومن هنا يأتى كثير من ثوراته وآلامه .

لم يكن الصبى يتوقع أن يشاركه أحد فى أمه بعد وفاة أبيه . فلما وقع ما لم يكن يتوقعه ، وجاءه شريك فيها وأى شريك ، انطوت تلك النفس الصغيرة الغريرة على ما يشبه خيبة الرجاء فى النساء ، فضلا عن الشعور بالحزازة والنفور من ذلك الرجل ، ذلك المزاحم الغريم الذى غلبه على أمه ، وصرفها عن ولدها حتى كادت — فيما يصوره له وهمه — تؤثر على وجود ولدها عدمه . . .

والقارئ يجد لا محالة صدى هذا الشعور المكبوت فى مفتتح ديوان بودلير « أزهار الشر » فى القصيدة الأولى التى تصف موقف الأم من ميلاد ولدها الشاعر ، تحت هذا العنوان الساخر : مباركة المولود Bénédition

« لما حم القضاء الذى لا راد لحكمه .

« وخرج الشاعر إلى هذه الدنيا العانية الكليلة برغمه
« ريعت أمه ، وأخرجها السخط عن طبيعتها .
فلوحت للسماء بقبضتها ، والسماء راثية لنكبتها » .
« آه ، ليتنى كنت قد ولدت وكراً كاملا من الحيات
ولم أكن والدة هذا المسخ دون سائر الوالدات ،
ملعونة ، ملعونة بما كان فيها من متاع عابر ،
تلك الليلة التى فيها حملت بطنى العاقر .
بمن كان ميلاده كالقصاص منى
تكفيراً عن أكبر الكبائر .

* * *

يا رب ! ما دمت قد اخترتنى من بين سائر النساء
لأكون لزوجى الحزين مجلبة متاعب واشمئزاز .
وما دمت لم أستطع أن أرمى فى لهيب النار .
بهذا الوليد المسخ الزنيم ، كرسالة حب قديم .
فإن هذه النقمة التى ابتليتنى بها .
سوف أصبها مضاعفة على هذا اللعين الذى كان أداتها
سأقصف عود هذه الشجرة البغيضة .
حتى لا تطلع براعمها المريضة .

فى مثل هذا الموقف العصيب ، ماذا عسى كان يملك فعله هذا الوليد ، إلا أن يمتثل ، أو – على الأصح – يظهر الامتثال لزوج أمه ، شأن العاجز المغلوب على أمره .



الصبي وزوج أمه

ولم يلبث القومندان أوبيك أن استدعى فى مارس ١٨٣٠ — فى أواخر عهد الملك شارل العاشر — فيمن استدعوا للحملة الفرنسية على الجزائر ، فبقى بعيداً عن زوجته بعض الوقت . وفى أثناء غيبة الزوج فى حصار قلعة الداى حسين ، انفرد شارل بأمه ، إنها لا شك كانت تستحى فى محضر زوجها الثانى أن تلاطف ثمرة زواجها الأول ، أما الآن فهما وحدهما . لقد عادت كما كانت ، له وحده .

لكن ، هيهات ! فلقد حُرِم آخر الدهر من اشتغالها به وتدليلها له . فهذه هى موزعة البال ، مستوحشة إلى الغائب ، تتبعه نفسها ويهفو فى أثره قلبها ، ولم يفت الصبى أنها أقل انصرافاً إلى الزينة . لقد تغيرت الحال فإن أمه لا تطلب الزينة لذاتها ، وإنما لذلك الرجل تتصنع وتتجمل . وليس أبلغ فى الدلالة على ما كان لتبرجها للرجل من لدغة غيرة فى نفس الصبى لارقية لسمها ، ومن الحزازة التى لا تفثأ نارها ، والاستنكار المر الذى لم يخفف منه تعاقب السنين وكرها . . . من تلك الأبيات فى قصيدة له نظمها بعد سنين عديدة :

« إنى لأتمثل أملك ، يا وليد هذا العصر الخسيس ، القليل الخير .

« أتمثلها فى حرصها على إصلاح ما أفسد الدهر .

« عاكفة على مرآتها تحكم الطلاء الأبيض على صدرها .

« ذلك الصدر الذى أرضعك » .

والمقطوعة كما نرى ظاهرة المرارة ، فاضحة التنديد . ولا شك فى أنه استشعر الخجل منها ، لأنه لم ينشرها حتى عام ١٨٦٢ ، وكان نشره لها فى إحدى المجلات حين أعوزه ما ينشر ، وألحت عليه الحاجة إلى بعض المال . ولقد كان بودلير يوافى أمه بنسخة من كل ما يؤلفه ، ولكنه أخفى عنها

المجلة التى نشرت هذه المقطوعة . ولما أن جمع شعره لم يفكر فى تضمينها ديوانه ، وذاك ولا شك احتراماً لأمه التى ما برح — على غيرته وحزازته — يؤثرها ويحبها الحب كله ، ويرى فيها مثال المرأة التى كان يتطلع إليها ويودها لنفسه .

طالب علم

وأيا كانت الحال ، فإن الضابط أوبيك لم تطل غيبته ، فما كادت تنقضى بضعة شهور حتى عاد إلى زوجته ، وقد رفعت رتبته إلى كولونيل ، وجعل مقره فى مدينة ليون ، فاستدعى ذلك نزوح الأسرة من باريس إلى تلك المدينة التجارية الصناعية العظيمة التى يخيم عليها الضباب ودخان الفحم ، والتى لم تلبث فى عهد الملك البورجوازى لويس فيليب أن أخذت تكثر فيها إضرابات العمال وما تجره فى الحين بعد الحين من الفتن والمصادمات ، فساهمت فى القضاء الأخير على الملكية بعد سنوات .

وكان شارل بودلير قد بلغ الحادية عشرة وقتئذ (عام ١٨٣٢) ، وحل أوان دخوله المدرسة ليتلقى العلوم المقررة بعد أن أخذ طرفاً من المبادئ الأولية على أبيه فى حياته ، واستأنف بعضها على أمه فى أوقات قلائل غير وافية منذ زواجها بعد مماته .

فلا جرم ، يتخذ زوج أمه قراره فى هذا الشأن ، فلم يكد يستقر فى ليون حتى أسلم الفتى إلى « بنسيون ديلورم » تمهيداً لإدخاله المعهد فى أول فرصة . وفى العام التالى ألحقه بالقسم الداخلى بالمعهد . وهنا رانت على نفس الصبى ظلال من الأسى مظلمة ثقيلة ، واستبد به — على حد قوله — الشعور بأنه « مقضى عليه أن يعيش مستوحداً مقطوعاً عن أهله طول دهره » .

وكانت المدارس منذ عهد نابليون الأول تجرى على نظام شبه عسكرى ، غير منظور فيها إلى توفير أسباب الراحة ، ثم تجاوز الأمر إلى عدم استيفاء النظافة ، وكانوا يأخذون النشء بالشدة ، ويوقعون بهم العقاب الجسدى لأدنى مخالفة . والشباب بما فيه من طبيعة الجذل

وسلامة العصب قد يكون له جلد على هذه المكاره . ولكن شارل كان على غير هذه الحال عصبيا سريع الغضب ساهر النقمة ثم هو يتساءل : ما باله أودع القسم الداخلى من المعهد ؟ وهذا مقام أمه غير بعيد من المعهد ، هذا المعهد الكريه الذى يسام فيه خطة لا تقل صرامتها عما يؤخذ به الجندى

الثكنة . يهب من الفراش على قرع الطبل فى الخامسة والنصف ولم يستوف نومه ، وعليه أن يتم الاغتسال ويزيل عنه الوسخ باليسير من الماء ، وفى مثل طرفة عين . ثم إلى الدرس ، فإذا أخطأ — وهو لا بد مخطئ — فلا تسلم يده الخصرة المتورمة فى الشتاء القارس من ضربات العريف بمقرعة الجلد العريضة الغليظة .

وسبب هذا البلاء كله أوبيك زوج أمه . فهو يزداد كراهة لهذا الرجل كل يوم . وما من شك فى أن أوبيك لم يكن منطوياً للفتى على النيات السيئة التى يدينه بها . وكل ما فى الأمر أن أوبيك جندى يؤمن بما فى التأديب وترويض الطباع من نفع وإحسان . ولا يبعد أنه كان جانحاً إلى محبته بادئ ذى بدء . وعلى كل حال فقد كان شديد اليقين بأنه يعمل ما فيه الصالح لابن زوجته ، وأن هذه هى الخطة القويمة لتربية النشء . وأنى لأوبيك أو لغيره أن يدرك أنه بإزاء نابغة يخرج على المألوف ويشذ عن القاعدة . وفوق هذا فإن أوبيك بعيد بطبعه عن فهم أمزجة الفنانين وتقدير هذا النوع من النبوغ .

وكان شارل يحاول التنفيس عن نفسه ، والتشاغل عما يرين على صدره ، ويأخذ بكظمه من شعور بإهمال أهله . فهو يتضارب وزملاءه ويتشاحن مع أساتذته ، وفيما بين هذا وذلك تخيم عليه كآبة ثقيلة الوطأة . والقارئ لخطاباته فى ذلك الحين يجد فيها استرسالا وذلاقة لسان ، وسخرية مازحة وطلاقة وخلو بال . وهذا كله ظاهر يخالف الباطن . وسبب ذلك ما طبع عليه بودلير من كبرياء وعزة نفس . فليذكر قراء بودلير ذلك جيداً ،

وليدخلوه فى حسابهم ، وإلا خدعهم عن نفسه . وليفطنوا إلى ما فى تضاعيف لفظه ، ولا يفوتهم ما بين السطور ، بل ليذهبوا إلى حد السماح له أحياناً بأن يكون مفهوم كلامه عكس منطوقه .

ولم يظهر بودلير نجابة إلا فى الترجمة اللاتينية واليونانية وفى الرسم ، ولم يخل من اهتمام بالتاريخ الطبيعى . ولكنه كان فى الجملة كسولا ، شارد الفكر ، أو على الأقل متفاوت الانتباه لما يلقى من الدروس ، لا قدرة له على حصر ذهنه فى موضوع يفرض عليه فرضاً ولا يكون له فيه اختيار .

وكانت مدينة ليون بغيضة إليه . فهى عنده كلحاء عبراء مرحومة الفضاء بمداخن أفرانها وأبراج كنائسها ، مقفقفة من الزمهرير لقيامها عند ملتقى نهرى الرون والساؤون . فهو قد مل بها الإقامة وأضنته السآمة.

وفى هذه الأثناء قامت فى ليون سنة ١٨٣٤ ثورة العمال ، ونصب الثوار المتاريس فى وجه العسكر . وكان الفتى يسمع تكتكة الرصاص من بعيد فى هذا الليل ، وهو ورفاقه فى مضاجعهم بقاعة النوم . ولا شك فى أن الفتى كان يتوقع فى وهمه أن يصاب أوبيك فى هذا الشغب ، وينتظر محموماً من الفرح أن يأتى الصباح بخبر مصرعه .

وأعقب ذلك أن نقل الكولونيل أوبيك إلى هيئة أركان الحرب فى باريس سنة ١٨٣٦ جزاء له على حسن بلائه . وكان شارل حين قدم باريس معه قد استكمل الخامسة عشرة من عمره . وهنا أسلمه زوج أمه إلى « معهد لويس لجراند Collège Louis-Le-Grand »

ويدلنا على مبلغ ما كان يعانيه الفتى أن عينيه لم يعد لهما ذلك البريق ، وكان يرى الناظر إليه صدراً ضيق الأضلاع فوقه رقبة معروقة ، يعلوها رأس ضخم — مثل هامة الأجنة — فيه معنى شيطانى وإلهى معاً ، ويجلله شعر أسود ، من تحته وجه شاحب . قال الكولونيل لناظر المعهد وهو

يقدم إليه شارل : « سيدى ، إليك هدية أتحفك بها – إليك تلميذاً يشرف به معهدك » .

والحق أن هذا الرجل المتشدد لم يكن بالمغلق الحس بحيث لا يتوسم ما في الفتى من ذكاء . فهو عارف حق المعرفة لنباهة عقله ، وإن كان قد غم عليه فهم نفسه . ولا نعنى بذلك قيام مشاركة عقلية بينهما ، فإن عقليهما أفقان لا يلتقيان . وإنما نعنى أن الكولونيل كان يأنس فى الفتى نضجاً باكراً ، ومواهب عقلية نادرة . ولعل فى بعض الجوائز فى الشعر اللاتينى والترجمة اللاتينية التى نالها الفتى ما ثبت يقينه فيه ، فأخذ يعقد عليه من الآمال ما يرضاه ويبنى له مستقبلا على هواه .

ثم إن شارل لم يكن ليناصب أوبيك ويكابره مجاهراً ، علماً منه بضعفه وقلة حوله . فهو كاظم غيظه ، ممسك على ما فى نفسه حتى إذا خلا إلى أمه نفس عن صدره ببوادر من السخرية .

ويؤخذ من كلام رفاقه أنه كان فى طبعه عرام وحدة ، وانه كان متبجحا متصلفاً ، مهوساً متهوراً . بيد أن أصحاب الفراسة منهم فطنوا إلى أن فى قرارة نفسه التكبر والاستخفاف . ويلفت النظر من شهادة مدرسيه كلام معلم التاريخ عما كان ظاهراً من سوء إقباله على هذه المادة وكراهته لها ، وما كان يبدو من اقتناعه بأن التاريخ شيء ليس وراءه طائل ولا فائدة منه . ثم قول معلم البلاغة إنه كان لطيف الفهم ، ولكنه غير جاد ، وإن عنده ملكة الإبداع والاختراع حين يريد ، وليس عنده ما يجب من الرصانة والأناة للبحوث الشاقة الجليلة ، ثم إنه سريع الخاطر ، بارع البادرة مع شيء من فساد الذوق .

وكان يقابل بالزراية البالغة بعض الأفكار المقررة والأحكام اليقينية يرددها أصحابها بلهجة قاطعة موقرة ، ولم يكن شيء ينشط له ويستخفه إلا الشعر . وكان يورد فى كل مناسبة شعراً للشاعرين فكتور هيجو وتيوفيل

جوتييه ، إلا أن هناك ديوان شعر كان يقرؤه فى الخفاء ، ولا يفضى إلى إنسان بأثره فى نفسه وموقعه من حسه. وذلك ديوان سنت بيف. وقد جاء على لسانه بعد سنين قوله : « كان سنت بيف آفتى » . وينصرف هذا إلى شعر سنت بيف وإلى نثره كذلك . فإن الفتى المراهق أسكرته منه قصة (اللذة) التى روى فيها المؤلف قصة حياته الغرامية . ومعنى هذا أن بودلير الشاب كان غير منساق مع الذوق العام وإن تظاهر بذلك لأقرانه ، وأنه كان يلتمس فنا جديداً يرتاض به ويعمل على حذقه .

وقضى بودلير حياته المدرسية كما رأينا بعيدا عن التأثر بمن حوله ، فهو يكاتم الجميع معظم أمره ، ويخدعهم عن حقيقة سره . وكذلك كان طوال حياته ، فلم يحبب أحداً إلى حد نسيان نفسه . وما كان له قط أصدقاء ، بل رفاق ، وأما أساتذته فلم يجد لهم غير الكراهة ، ولم يكن لواحد منهم تسلط عليه ، ولا لتعليمهم فضل فى تنشئته ، وإنما نشأ وحده وتخرج على نفسه .

وقد قرأ بودلير فى هذه السن إلى جانب قصة (اللذة) قصصاً أخرى لا يليق بالصغار قراءتها نذكر منها (الراهبة) للكاتب الفيلسوف ديدرو ، وكانت قصص العشق هذه تستهويه بقدر ما يكون فيها من هول الإثم والاجتراء على المحرمات وتعدى الحدود . فهنا ، حيث عذاب النفس واليأس القاتل واللعنة الأبدية ، تهتز مشاعر الفتى اهتزازاً لا يعدله إلا اهتزازها لقراءة خواطر « بسكال » الروحية التى كتبها فى سنوات مرضه الأخير وهو يغالب حيرة عقله فى أمور الدين ويتوجه إلى الله بقلبه مستلهماً الإيمان مستفتحاً أبواب اللانهائية : وهو مرتجف الحس فائض النفس .

وما برح هذان هما القطبين اللذين دارت بينهما حياة بودلير حتى آخر عمره وصدر عنهما شعوره وشعره .

وفى سنة ١٨٣٧ اصطحبه أوبيك وأمه إلى رحلة للنزهة فى جبال البرينيه ، فعاد منها الفتى بقصيدة عنوانها « تنافر » (Incompatibilité) وصف فيها منظر هذه الجبال الجرداء ، البعيدة عن حركة العمران وعن خضرة الزروع ، وترجم فيها عما وجده من شعور بالوحشة والوحدة . ولعل فى عنوانها إشارة إلى عدم الامتزاج فى الذوق والمشرب بينه وبين صاحب الرأى فى الرحلة وهو زوج أمه .

فالفتى بودلير آخذ فى نظم القريض . ولكن من المحقق أنه لم يكن يطلع الضابط على شعره ، فهو يعلم أنه أمر لا يسره . ولعله لم يكن يطلع عليه أمه ، فإنها وهى المتورعة المتهيبة كانت تجفل من ميول ابنها الأدبية . فإذا خطر له أن يحادثها حديث الأدب ، أخذت عليه السبيل وعدت على الأمر فى غير احتفال ، بحسبانه جهالة كغيرها من جهالات صباه ، لا تلبث أن تنقضى حين يدرك رشده .

ثم هى لا تملك نفسها من التعجب لهذا الولد العجيب فى حنانه وفى قسوته . أما كان الأحرى به أن يطيب نفساً ويقر عيناً ، ويحمد الأيام أن قيضت له رجلا مثل أوبيك — رجلا محمود الشمائل حر الخلال ، قادراً على تحقيق مصلحته ، ودفعه فى طريق المناصب ، وترشيحه للمراتب الاجتماعية الرفيعة . إنها لتتأذى وتألم حين ترى ابنها يتهانف ساخراً — فى ساعات ضيقه واهتياج عصبه — من صورة المستقبل البهى الزاهر الذى يرسمونه له . وكانت الحال تتحرج حين يند الفتى عما يتكلف لزوج أمه من موقف الابن المطيع ، فينبس بكلمة تفتح عينى الرجل على فرجة من قرار هذه النفس المضطربة . هنا تجهش مدام أوبيك وتغشاها نوبة عصبية .

ولا تسل عما أصاب المسكينة حين طرد شارل من معهد لويز لجراند فى إبريل سنة ١٨٣٩ . فقد تلقى أوبيك تبليغاً من الناظر بطرد الفتى . وأما علة الطرد فقد خلت منها سجلات المدرسة . وقد يكون ما أتاه الفتى

كبيرة من الكبائر . ولكنه لا شك أيضاً فى أن لنقمة الأساتذة عليه دخلا فيما رتبوه على ذنبه . واشتد أوبيك على شارل . وفى هذه المرة طأطأ الفتى من إشرافه ونكس رأسه . إن طرده من المعهد رج كيانه وزلزل أركانه ، لقد تملكه الفزع مما أتاه . فهو يكتب إلى أمه أنه «يخشى ألا يجد سبيلا إلى التعليم» . لقد زايلته ثقته بنفسه وساورته المخاوف من الحياة. أما أوبيك فقد بلغ من غضبه أن جرى على لسانه ذكر إصلاحية الأحداث.ولكن الفتى نادم أشد الندم ، مستغفر من ذنبه ، ملتمس الصفح والغفران . ودخلت الأم متشفعة ، وهى عند زوجها مقبولة الشفاعة. فعدل إلى إنظاره واعتمد رأيها فى إمهاله فترة ، والإملاء له فى الفرصة . وكان أن عهد به إلى أستاذ معيد للفلسفة يقيم عنده ويتجهز تحت إرشاده ورهن إشرافه لامتحان البكالوريا . وكانت الأسرة مما تعافه نفس بودلير . فهى أسرة يسودها العقل والمحبة والاتزان، لا يستطيرها غضب ولا يغلو بها طرب . وهو لذلك ضيق بهم ، كاره لمقامه بينهم ، شديد الملل . ولكنه مع ذلك أقبل على العمل وتقدم للامتحان ونجح . فكان أول همه أن طير الخبر إلى زوج أمه . وبهذه المناسبة هنأه بما قرأ عنه فى الصحف عن ترقيته إلى رتبة جنرال .

وعاد شارل إلى المنزل ، ولكنه لم يكد يضع فيه قدمه ، حتى قامت من جديد مسألة المستقبل الذى يرشحه له أوبيك . فإن أوبيك يعلل النفس بأن يدخله السلك السياسى وأن يراه ذات يوم من رجالاته . ولكن الفتى كان مصمماً على خلافه : فقد أجمع عزمه على ألا يطاوع وحياً غير وحى شيطانه . فأعلن أنه اختار لنفسه — دون سائر المهن القويمة المكينة — مهنة الأدب وإن تكن غير مضمونة ولا مأمونة . فلما أعلن شارل رغبته فى الاشتغال بصناعة الأدب ، كانت صدمة لأوبيك ، بما فيها من تخييب أمله ومخالفة عزمه . ولم يبق عنده شك فى حماقة الفتى وجنونه ،

فهاج هائجه وثار به حتى رماه بالفسولة والصعلكة . ونسى الفتى نفسه أثناء المشادة ولم يحكم ضبط أعصابه فقامت بينهما جلبة ، وبلغت الحدة بزوج أمه أن تجاوز — فى قول بعضهم — إلى حد التهجم باليد على الفتى . وتدخلت الأم المسكينة كالعادة . ولزمت الفراش من أثر ذلك أياماً . وأخيراً تشفعت الأم لابنها ونجحت فى إقناع زوجها بإفساح الوقت للفتى حتى يفكر . لقد عاش ابنها السنين الطوال فى دور التعليم رهن التضييق والنظام الدقيق العقيم ، فلعله فى حاجة للاستجمام والترويح عن النفس . ثم هو بالغ عن قريب سن الرشد ، والأحرى أن تطلق له بعض الحرية قبل أن يصبح صاحب التصرف المطلق فى ماله ، وفى مستقبل حاله ومآله .

فأرسله أوبيك يقضى فترة فى باريس فى نزل اختاره .

فى باريس

كان النزل الذى اختاروه للشاب بودلير مما ينزل فيه الفتيان القادمون من الريف للدراسة فى باريس ، والمقصود به أن يشعرهم أنهم فى مثل أسرتهم وإن يكن التشبيه فى الواقع جد بعيد وفيه تجاوز كبير .

ولم تكن هذه الدور بالموضع النزه المريح . ولكن ماذا يعنى الشاب بودلير من نزهة المكان وراحة المثوى ومذاق الطعام ؟ بل ماذا يعنيه من شمائل السكان أنفسهم ! إن الشبان فى الثامنة عشرة ليهون عليهم ذلك ، إذا هم نعموا بالحرية . فلا عجب ألا يشتكى الفتى بودلير من وضاعة غرفته — وإنه لقليل المقام فيها ، ولا من تفاهة الطعام — وإن أغلب عشائه فى الخارج وكثيراً ما يلهو عن عشائه . هذه أمور لا وزن لها اليوم عنده . إنه فى أحضان باريس ، المدينة ذات الوجوه المتعددة ، المدينة التى فيها كل شىء حتى القبح ينقلب سحراً ، ثم إنه يستطيع أن يكون هو على حقيقته . يستطيع أن يفرج عما ينطوى عليه شخصه من شخوص عدة ، أن يكون الساعة غير ما كان قبلها وغير ما يكون بعدها ، أن يكون هذا الشىء ويكون نقيضه أو يكونهما معاً—فذلك شأن الشاعر وقصارى حظه دون غيره .

لقد كانت أمه حسنة الإيمان متدينة ، وكان زوج أمه يحرص على حضور القداس . ولعل ذلك ما أحدث فى نفس بودلير عكس الأثر . فما سبيل الناقم المتسخط إلا المخالفة . فإلى أين إذاً يمضى هذا الفتى المنطوى على نفسه ، السابح فى الأحلام ، المترفع المتأنق ؟ إن الشباب ملء إهابه ، والمال متهيئ فى وطابه ، وله حساب مفتوح عند الحائك وصاحب القبعات وبائع الأحذية . لا تراه إلا قشيب الثياب ،

معطر الأردان ، محتفلا بهيئته وزينته . وبالجملة هو متحذلق من متحذلقة السمت والهندام . وكان قد اتصلت الأسباب بينه وبين شباب الأدباء فى الحى اللاتينى ، وانضاف به إلى مقاهى الضفة اليسرى عميل طارئ وضيف جديد سرعان ما صار معروفاً ملحوظاً لفرط أناقته وبسط يده بالعطاء .

وإلى هنا لا بأس ولا حرج . ولكنه لم يقف هنا . فثمة النساء . ولعلنا كنا نقول إن شأنه فى هذا أيضاً شأن سائر الفتيان لولا أن شارل بودلير اتجه إلى شر النساء . لقد كان فى إمكانه أن يهوى عذراء من الخرائد الحسان ، أو يتعلق أرملة خوداً فى نضرة العمر ، أو يتصل بغير ذلك من صنوف الغانيات المحترمات . ولكنه لم يتجه إلى الناحية الوجدانية الرقيقة ، ولم ينزع إلى المتعة الحسية الصحية ، ولم يطلب ما يطلبه الفنانون من حسن الشكل واستواء الخلق وتناسب القد والتقطيع . وإنما دب إلى المباءات الفاسدة يتطعم شر مذاق للإثم مع الوضاعة والفقر والقبح والمرض .

وكان بودلير يقرأ على أصدقائه الأدباء من شباب الحى اللاتينى ، وغيرهم ممن عقد معهم صداقاته الأدبية الأولى ، ما كان ينظم وقتذاك من مقطوعات غضة قوية ، مستحدثة عصبية ، مستغربة الأصالة ، تنم على ما خرج به إلى الدنيا شاعرنا الشاب ، من العقد النفسية ، وسوء الظن بالطبيعة البشرية ، وعدم المبالاة بالعرف والمواضعات الأخلاقية .

ومن الشواهد على ذلك قصيدته فى سارة اليهودية ، أو كما يسميها الحولاء La Louchette التى تعد مثالا على الفتيات التى كان يغشاهن ، وإن جاءت معرفته بها متأخرة عن غيرها وقد نشرت هذه القصيدة فى مجلة « فرنسا الفتاة La Jeune France » وكان بودلير حين نظمها فى العشرين أو نحوها :

« ليست من الغانيات النابهات خليلتى

« وإنما عن نفسى أخذت فتنتها كما تؤخذ العارية
« تقتحمها عيون المستخفين وهى غير مبالية
« ولا يزهو لها جمال إلا فى مهجتى العانية

* * *

« من أجل حذاء تلبسه فى قدمها باعت روحها .
« وإن الإله الرحيم ليستهزئ بى لو أنى استهزأت بها
« واتخذت بجانب هذه المفضوحة سمت التورع وتظاهرتُ بالترفع
« وأنا مثلها أبيع فكرى راجياً أن أكون مؤلفاً

* * *

« والأدهى فى أمرها جمتها المستعارة
« فقد انحسر شعرها الفاحم الجميل عن بياض قفاها
« فلم يكن ذاك بمانع محبها
« أن يهوى بالقبل على جبينها الأملس كإهاب الأبرص

* * *

« هى حولاء . ولكن نظرتها الغريبة الحالكة
« تحت سواد أهدابها الوطفاء كأهداب الملائكة
« جعلت جميع الأعين الفتانة النجلاء .
« لا تعدل عندى هذه العين اليهودية المدبوغة الحولاء

* * *

« صغيرة لا تتجاوز العشرين ، ومع هذا فإن ثدييها

« مسترخيان يتدليان على جانبيها
« وكثيراً ما خلا من درهم كفها
« فلم تجد ما به تحك جلدها وتدلك كتفها

* * *

« والمسكينة عند الانفعال مقطوعة النفس مبهورة
« يأخذها الفواق وتكظ صدرها الحشرجة
« وأكبر ظنى ، وأنا أسمع شهقاتها المحرجة
« أنها نزلت ضيفاً على المستشفى مراراً كثيرة » .

ولقد جنت على بودلير هذه العشرة جنايتها . فلم يلبث أن أصابه الداء الخبيث . وقد ألمع إلى ذلك بعد سنوات عدة فى خطاب إلى أمه . ولا نعرف على وجه التحقيق كيف كان شعوره ، وهو فى العشرين من عمره يجد نفسه مؤوفاً ملوثاً ، ولكننا نخال أن شعوره كان مزيجاً من الارتياع والرضى ، فذلك ما يتسق مع الذى عرفنا من مزاجه ، وليس أدل على هذه الحالة النفسية من أنه كتب فى ذلك الحين بيتين من الشعر على نحو ما يكتب على القبور ، وكان هو المقصود بهما ، وهما يجمعان بين التفجع الأليم والضحكة الساخرة الصفراء :

« هنا يرقد رهين العفاء
« من جنى عليه التولع بأحط النساء
« فنزل حديث السن غض الصبا
« فى قاع مظلمة كجحر الخلد فى جوف الثرى » .

ولا شك فى أنه من الدوافع التى دفعت بودلير إلى هذه الحياة نزوعه لإتيان الغريب والاجتراء على المستهجن ، وانجذابه إلى المكامن

المظلمة الغامضة بحافز الفضول والإغراق فى الاستطلاع والتحليل ، وإيمانه إيمان معاصره الروائى « بلزاك » بأن النفس الإنسانية كثيرة الشعاب ، معقدة الأسباب ، مختلطة العالى بالسافل ، واتخاذه مثله موقف العالم الطبيعى الذى يعنى بدرس الجميل والقبيح ، والخير والشر على السواء . ولعله وراء ذلك كان يجد بعض الشفاء لنقمته على أمه فيما يجتمع له فى هذه التجارب من الشعور بحقارة المرأة .

على أننا نخطئ إذا قام فى خلدنا وتصور فى وهمنا أن بودلير كان مرتاح النفس إلى هذه الحياة المنحطة التى يحياها ، فإن القرير العين ، الطيب النفس بما هو فيه ، لا يجرى على لسانه مثل هذا القول :

« كنت فى بعض الليالى مع يهودية نكراء
« وكأنما كنت جثة ممددة إلى جانب جثة ،
« فأنشأت قرب هذا الجسد المبذول
« أفكر فى الجمال الحزين الذى حرمته » .

فهناك إذاً ما يقصر الفتى على هذا المتاع الرخيص . ولكنه الكاتم لسره ، المغلوب على أمره . وكل الذى نعلمه حتى الساعة علم اليقين ، أنه لم يكن فيما انغمس فيه مستغرق الحس ، مشبع النفس ، بل كان فى أحضان الإثم الشائن ، يهفو للحب الصادق العظيم ، ويحلم بالجمال الرقيق الحزين . ومهما يهوِ فى درك الوهدة ، فإنه لم يبرح متطلعاً إلى أعلى .

وكان من العسير على شارل وقد تقلب فى هذه الحياة المخلوعة العذار ، وزادته الأوساط الفنية اندفاعاً للتفكير الطليق من كل اعتبار ، أن ينسجم كثيراً أو قليلا فى بيئة كالتى يعيش فيها والداه . فلا جرم نراه ضيق الصدر ، غير منبسط النفس ، فى تلك الولائم الرسمية التى كان يقيمها زوج أمه ، والتى كان يحضرها كارهاً ، ويستمع إلى أحاديثها الغثة

متبرماً . وحدث فى بعض هذه الولائم وأعصابه جد مهتاجة ، أن أفلت منه عنانها فعقب على بعض الكلام تعقيباً ساخراً . فأنكر عليه أوبيك وأغلظ النكير . وساد الوجوم على المدعوين . وهبّ الفتى ممتقع اللون من الإهانة ، وقال وهو فى أشد الغضب ، متكلفاً كمألوف عادته الأدب « سيدى ، إنك لم ترع حرمتى ، وأخطأت أكبر الخطأ فى حقى ، وهذا يستوجب الجزاء ، وسيكون لى شرف خنقك » فلم يتمالك الضابط الكبير فى حلة التشريف الفاخرة إلا أن صفعه . واضطربت المقاعد وعم الذهول وارتمى الفتى على الأرض فى نوبة عصبية شديدة .

وقد كان من جراء ما انساقت فى تياره حياة بودلير الخاصة ، فضلا عن هذا المسلك المستهتر الذى بدرت بوادره من الفتى على الملأ فى المجتمع ، أن انزعج الجنرال أوبيك زوج أمه أشد الانزعاج ، وخشى على نفسه من هذه المواقف والشطحات وما تؤدى إليه من سوء القالة التى تمس ولو من بعيد ما بلغه من رفعة الرتبة وجاه المنصب ؛ فعمل على عقد اجتماع للأسرة .

وبعد أيام كان مجلس الأسرة منعقداً وفيه الدوق فيلكس من آل براسلين أصدقاء والد الشاعر وقد قر رأى المجلس على أن يرحل الفتى بعيداً عن عشراء السوء فى رحلة طويلة ، واعتمدوا لها خمسة آلاف فرنك من ثروة الفتى القاصر . فما برحت الأسفار — على حد قول أوبيك — أصلح تنشئة للصغار .

الرحلة إلى الشرق

بين أفريقية والهند

فى التاسع من شهر يونية سنة ١٨٤١ أقلعت من ميناء بوردو الفرنسى الواقع على ساحل المحيط الأطلسى ، مركب عليها اسم (بحار الجنوب) (Paquebot des mers-du-sud) وفى هذه المركب كان شاعرنا بودلير ، وقد أسلم إلى قبطانها « ساور Capitaine Saur » الذى كان صديقاً قديماً لزوج أمه ، وكانت وجهة المركب بعيدة تقتضى الطواف حول أفريقية إلى بلاد الهند ، قاصدة على وجه التخصيص كولومبو عاصمة سيلان ، ثم كلكتا عاصمة البنغال .

ولقد ارتضى الفتى هذه الرحلة بعد تمنع ، لما رآه من حماسة أديب صديق له من هواة الأسفار الحالمين وهو « جيرار دى نرفال Gerard de Norval » ولا شك أن كلمة الهند وحدها كان يكفى وقعها فى سمع هذا الصديق الملهب الخيال ليتمثل فى ذهنه مناظر ساحرة الروعة عجيبة الجمال ، وفتنة فى هذه الآفاق النائية وراء ما يتصوره وهم إنسان . فلا عجب أن كان بودلير ساعة الرحيل على شىء من الرضى والبشر . ولكن هذه الحال لم تطل مدتها . فما لبث يوماً أو بعض يوم حتى ضاق بهذه الرحلة وركبه الملل ، وحن إلى ندمائه فى باريس وفنون أحاديثهم .

ولم تكن أسباب الراحة متوافرة فى ذلك العهد . وكان الفرق لا يكاد يذكر بين حال المسافرين والملاحين . وكانت المشاركة عامة فى الطعام والمنام والمغسل بين أفواج الركاب . وفى ذلك ولا ريب ما يضيق به فتى رقيق أنيق مثل فتانا بودلير . ولكنه كان أشد من هذا ضيقاً بالمسافرين

أنفسهم . فقد كانوا — كما لا بد أن يكونوا — خليطاً من تجار المستعمرات ورجال العسكرية ومعهم نساؤهم وأولادهم . وطبيعى أن الحديث الذى يدور بين أبناء هذه الطبقة الوسطى (البورجوازية) بمسمع منه لا يعدو الشئون المعاشية ، والنوادر التافهة العامية ، والاعتبارات الخلقية العرفية . فامتلأت نفس شاعرنا الباريسى احتقاراً لهم وحزازة عليهم . فصار يجد لذة شيطانية فى إتيان ما يستهجنونه والاستهزاء بما يعتقدونه . وقد زاد فى ارتياعهم أن يصدر هذا عن فتى ناشئ فى سن أبنائهم فلم يزده استيحاشهم منه إلا تمادياً فى موقفه وعناداً . وكان القبطان — كما أسلفنا — صديقاً قديماً لزوج أمه ثم هو طامع يوماً فى الاستعانة بجاهه ، فكان يبذل وسعه لمرضاته والتسرية عنه ، وقد خطر للقبطان فيما خطر بادئ الأمر أن يوصى ابنه بملازمة بودلير فى غدواته وروحاته ، فهو فتى من لداته ، فكان حظه من الزراية وسوء المعاملة فوق حظ الآخرين .

وقصارى القول أن بودلير كان فى السفينة مستوحداً منطوياً على نفسه مستغرقاً فى الكآبة والوجوم . وقد اشتد للعودة حنينه .

وعاجت المركب بجزائر الرأس الأخضر المحاذية للشاطئ الأفريقى عند السنغال للتزود بماء الشرب ، وأقامت يوماً ، ثم رفعت مراسيها ومضت توغل جنوباً وقد شارفت خط الاستواء ، وأصبحت حرارة الجو تلهب الأعصاب وتزهق الأنفاس .

وكان يقطع اطراد الرحلة ، وسياقها الرتيب ، ما يقع للنوتية من عجائب الصيد . من ذلك أنه اتفق لهم ذات مرة حوت من خنازير البحر اشتغلوا بصيده . وقد اقتطع منه طباخ السفينة قطعة صالحة جعلت لطعام اليوم طرافته . وما بنا أن نورد الحكايات من ذلك القبيل ، ولكننا نخص بالذكر واحدة . فقد وقع للقبطان فى عصر بعض الأيام أن أصاب بطلقة من بندقيته طائراً عظيماً من طيور البحار الجنوبية كان محلقاً فوق

صوارى المركب . فهوى الطائر على ظهر المركب حياً إذ أصابه الرصاص في جناحه دون سائره فشد الملاحون ساقه بخيط طويل ! وتركوا أسيرهم يدلف على سقائف السفينة .

وكان الطائر عظيم الجرم لا يقل عرض جناحيه عن اثنتى عشرة قدماً . وكان الملاحون يعاكسونه ويستفزونه ليتفرجوا بالنظر لهذا الطائر العظيم من طيور الفضاء يمشي على أرض السفينة على قدميه متخبطاً فى مشيته الخرقاء ، مجرراً جناحيه الطويلين ، على صورة جمعت من المفارقات ما جعله على ظهر السفينة ملهى ومعرض استهزاء . فكان يضحك لمرآه جميع من بالسفينة ، ويضجون بالضحك عدا بودلير . ولعلنا نلمس موقفه وكنه شعوره وقتذاك فى هذه القصيدة الفريدة فى موضوعها التى نظمها بعد سنوات من عودته بعنوان « طائر القطرس L'Albatros »

« كان الملاحون كثيراً ما يلهون
« فيقنصون طيور البحر العظام
« وهى تابعة مستسلمة مسترسلة كرفيق الطريق
« فى صحبة السفينة المنسابة فوق لجج الخضم السحيق .

* * *

« فما هو إلا أن هوى بعضها على أرض المركب
« حتى رأينا هذا الملك من ملوك الأجواء فى حال شوهاء
« وأجنحته البيض الطوال مسلوبة الكبرياء
« يجرها إلى جانبيه كالمجاذيف .

* * *

« ذلكم فارس الهواء ، ما أسمج ما صار إليه ، وما أهونه !

« ذاك الذى كان مرموق الأبهة ، ما أقبحه ، وأدعاه للتفكهة .
« والقوم من حوله ، بعضهم يمس بقصبة التبغ منقاره مضايقاً
« والبعض يتعارج محاكياً هذا الكسيح وقد كان محلقاً .

* * *

« كذلك الشاعر ، أشبه الأحياء بأمير الأجواء
« يقتحم العواصف ولا يبالى الرماة وهو فى أوج السماء
« ولكنه على الأرض غريب طريد ، ومعرض استهزاء وهوان
« يمشى متعثر الخطو ، يعوقه عن المشى ، جناحاه الجباران »

وأخيراً بعد أن استوفوا حظهم من الضحك أجهزوا على الطائر . وجعل منه الطباخ فطيرة ليوم اجتيازهم لخط الاستواء ، وهو من الأيام التى يحتفلون بها ويتجهزون لها بالطعام والشراب .

ولما بلغت المركب أقصى الجنوب عند رأس الرجاء الصالح ، هبت عليها عاصفة هوجاء قال عنها القبطان فى تقريره « إنها حادثٌ من أحداث البحر لم يمر به مثله فى مدى الحياة الطويلة التى قضاها فى البحار » وظلت السفينة خمسة أيام وخمس ليال تتقاب ظهراً لبطن بين طوامى الأمواج ، وقد غمر الماء غرفها ، واستولت على ركابها رعدة الخوف والبلبال . وفى هذه الحال الرهيبة كان بودلير كالعهد به لم يفارقه تكلف الأدب ورعاية مراسمه . وذلك أن أمر الفتى ليس كله تظاهراً وجعجعة ، بل فى نفسه وثاقة وصلابة ، ولقد أثنى القبطان فيما كتبه — وهو المعروف بجلده وشجاعته — على ما أبداه الفتى من ثبات جنان ورباطة جأش .

أما بودلير ، فإنه لم يشر أية إشارة إلى هذا عند عودته .

وكان قد انقصف أحد الصوارى وطاح مع بعض الشراع إلى اليمّ . فلما أن سكن الإعصار وصحا الجو ، أخذت السفينة المهيضة تشق

طريقها حتى دخلت المحيط الهندى ، ومرت بجزيرة مدغشقر وتجاوزتها ، ثم توقفت وألقت مراسيها بجزيرة موريس . وكان دخول السفينة فرضتها فى اليوم الأول من شهر سبتمبر بعد ثلاثة وثمانين يوماً من السفر فى البحر .

وبينما كان العمل جارياً فى إصلاح السفينة كان مقام المسافرين جميعاً فى الفندق الوحيد بالمدينة . وكان بودلير محنقاً متسخطاً ، لعدم استطاعته التخلص من صحبتهم ، وهى عنده أدهى وأنكى من البعوض ينهشه ويعذبه . على أنه وجد بعض الراحة فى صحبة أفراد من المتطوعين الفرنسيين فى الجزيرة ، وهم معظم الجالية الأوربية بها على الرغم من دخولها فى حوزة إنجلترا فى أثناء الحروب النابليونية . وقد توثقت الألفة بينه وبين آل « براجار Antard de Bragard » خاصة ، فكان يختلف إلى دارهم أكثر الوقت . وكانت مدام براجار رائعة الحسن ، ومما يجدر بنا ذكره لزيادة التعريف بها أنها كانت لها ابنة تزوجت بعد سنوات فرديناند دى ليسبس . وكان مجلسها لا يخلو من بعض المتأدبين والمشتغلين بنظم القريض . فانفسحت لبودلير فرجة للكلام فى الأدب وما استحدث بباريس من مذاهب واتجاهات ، ولا شك أنهم فهموا من كلامه أنه يتعاطى الشعر ، فاستهداه صاحب الدار المزارع الكبير براجار أبياتاً تذكاراً لزيارته . وامتدت الأيام وفعل الجو الدفىء والهواء العليل فى أعصاب الشاب ، وغلبت العذوبة السارية على نفسه الثائرة ، فكان يقضى الساعات كالحالم متفتر الأوصال تحت ظلال النخيل ، وهو قرير العين طيب الخاطر فى هذه الجيرة الحادثة ، مشمولا بعطف السيدة الحسناء الفاضلة . وحسبنا شاهداً على ذلك إيراد هذه الكلمة من رسالة له إلى آل براجار (ولولا أن حبى لباريس وحنينى إليها تجاوزا كل حد ، لأقمت بينكم أطول المقام ، ولفعلت كل ما يجعلنى محبباً إليكم ، ولرأيتمونى أقل شذوذاً مما يظهر منى) . وكلمة الشاعر هذه فى رسالته إلى آل براجار شاهدة بأجلى بيان على ما تستطيع

البيئة الجميلة المدركة الطيبة أن تفعله فى مزاج هذا المحروم المعذب .

ولقد برّ الشاعر بوعده ، فلم تمض على مغادرته الجزيرة أيام حتى أرسل بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٨٤١ من جزيرة بوربون وهو فى طريق العودة أبياتاً يحيى بها غانية جزيرة موريس مع رقعة إلى زوجها يقول فى مستهلها .

(لما كان من المستحسن واللائق والمناسب أن شعراً يرفعه شاب إلى سيدة متزوجة ، لا بد من وروده على يد زوجها قبل بلوغه إليها ، فأنا مرسل الشعر إليك لتطلعها عليه إذا رأيت ذلك) .

وهذه هى الأبيات :

« فى البلاد المتضوعة بالعطر التى تداعبها الشمس الساطعة
« وتحت ظلة ظليلة من شجر وارس أرجوانى
« ومن نخيل تفيض على الاجفان فتوراً
« عرفت غانية مستوطنة ذات فتنة لا عهد بها .

* * *

« لونها شاحب حار . وهذه الفاتنة السمراء
« ذات جيد مشرف السمت ، نبيل الالتفات
« مديدة القامة هيفاء ، كأنها طاردة قانصة
« لها ابتسامة هادئة ، وفى عينيها ثقة .

* * *

« لو جئت يا غانية — إلى بلاد المجد الأثيل
« على ضفاف السين أو وادى اللوار النضير

« أيتها الحسناء الرائعة الطلعة التى تليق زينة لقصور الأمراء.

* * *

« إذاً لحيتك فى كنف خمائلها الوارفة

« ألف مقطوعة أنت أطلعت طلعها فى أفئدة الشعراء .

« وقد سبتهم عيناك النجلاوان فباتوا أطوع لك من عبيدك السود » .

ولم يتجاوز مقام بودلير فى جزيرة موريس أسابيع ثلاثة ، بل هو على وجه التحقيق أقل من ذلك. فقد نزل إليها — كما قلنا — فى أول يوم من شهر سبتمبر وكانت رحلته عنها فى التاسع عشر . وإذا كان شاعرنا طوال أشهر السفر لم يفتأ شديد الحنين إلى باريس ، كارهاً للبعد عنها فإن حنينه بعد هذه الأسابيع الثلاثة كان قد بلغ مبلغاً لا يغالب. فهو موطن العزم على قطع هذه الرحلة الطويلة والعودة من حيث أتى .

على أن حواس الشاعر — على الرغم من الملل القاتل — كانت تعمل ، وذا كرته — من غير علمه — كانت تسجل . فثمة الخليج الممتد أمامه تتعالى الصوارى فيه كالغابة الشجراء ، مزدحماً بأنواع السفن كباراً وصغاراً شتى الأشكال مختلفة الشيات ، وعليها المسافرون والملاحون والحمالون جميعاً فى هرج ومرج من جميع الألوان والأجناس. وثمة مزارع قصب السكر منبسطة عند قدميه شاسعة. وهنا وهناك على المغايض أشجار عبقة الصمغ ، متدلية الشعور ، ذات خضرة مائية . ومن فوق هذا كله زرقة السماء الشديدة النيلجية . وفى الحين بعد الحين تسمع هتافات لبعض الطيور شاذة النغمة عجيبة التصدية . وتتوارد على النظر سحنات الهنود المجلوبين للعمل ، يقطعون الزروع ويحملون الحصاد ، وأشباح الجوارى السود ممشوقات القدود ، والفوط الملونة مشدودة حول أردافهن المترجحة .

ولكن الفتى المهموم ما كان ليعير هذا المنظر اهتمامه . إنه يفكر فى باريس مصمماً على العودة . وأعلن إلى القبطان تصميمه، وأحس القبطان هذه المرة أن المراجعة لا تجدى. فاتفقا على أن يصحبه حتى جزيرة بوربون ، وهناك يدبر له السفر على إحدى السفن العائدة . فلما رست المركب فى جزيرة بوربون ، كان الملل قد بلغ ببودلير غاية مداه وانتهى إلى أقصاه ، فكره أن ينزل إلى الجزيرة ، وبقى من الحرد عشرين يوماً فى المركب ، حابساً نفسه متنكراً لما حوله ، وفى أثنائها كان نظمه للقصيدة التى أرسلها إلى الحسناء الفرنسية نزيلة جزيرة موريس . وقد يئس القبطان (ساور) من استرضائه وإقناعه بالمضى فى الرحلة على سفينته . وفى السابع عشر أو الثامن عشر من أكتوبر أقلعت (بحار الجنوب) شاخصة إلى البنغال — دون بودلير . لقد وكله القبطان ساور إلى عناية قبطان السفينة (السيد alcide) القافلة إلى فرنسا .

وهكذا كانت رحلة بودلير إلى الشرق مقتضبة . ومع ذلك فإن ما افاده منها لا حد له . لقد عاد أوفر خيالا وأغنى إحساساً بما اجتلته عيناه من المناظر ، وما حلمت به نفسه من الأحلام . إن الشهور الطوال التى قضاها على ظهر المركب لا يجد ما يفعله إلا النظر فى اللجة الطامية المترامية فى عرض البحار ، قد زادت فى تعميق ميله إلى سبحات الفكر . وإن ينس فلن ينسى أيامه فى تلك الجزيرة النائية فى المحيط الهندى ، فى أحضان حياة عذبة نشوى ، حيث الألوان الزاهية تخطف الأبصار ، وحيث النباتات العجيبة فى هبوة الحر المتصاعدة تتحوى وتتلوى كأنما هى من عالم الأشباح لا من عالم الحقيقة ، ثم ساعات القيلولة ، وهو متفتر الجسد فى ظلال الأكواخ ، تحت سماء الظهيرة الصاخدة المحرقة . وبعدها ساعة المساء المشبعة المثقلة بشذا العطور الفاغمة وهو فى حال من خدر الحس وسكرة النفس بين الحلم واليقظة . لقد أشربت نفسه وحسه وذهنه وخياله

بكل هذا . وتزودت منه بذخيرة لا تنفد ، يقبس منها فى مستأنف حياته الصور والتشابيه والمقابلات والرؤى لأجمل كتاباته وأروع أشعاره .

عاد شاعرنا من الشرق فلم يلبث أن ظهر فى شعره هذا الشوق الغامض إلى جواء غنية حارة ، وآفاق بعيدة مجهولة ، وبهاء باهر ، وجمال نادر ، مما يعز وجوده فى هذا الوجود . ولقد بقيت لشعره هذه النزعة الحسية الصوفية التى تعد أخص خصائصه .

فهذه الرحلة للشرق كانت نقطة التحول فى حياة بودلير الأدبية . فقد بدأ بداية ناشئ غير مستوثق من نفسه ، يصبو إلى أن ينتظم فى الحياة الفنية تساوره صور من الشعر مبهمة . أما اليوم ، فقد انقلب صاحب قريحة أصيلة ، وخيال مشبوب مطبوع ، ووحى خالص له ، ورسالة مخصوصة به .



الشاعر فى جولاته الليلية

رسم خيالى بريشته



زهرة الشر . . جان ديفال

بريشة الشاعر

الولد المضياع

كان نزول بودلير إلى أرض الوطن فى فبراير سنة ١٨٤٢ ، بعد تسعة شهور من الغيبة ، وبعد أيام كان فى باريس ، ولم يكن أحد يتوقع قدومه بمثل هذه السرعة ، ولم تتمالك الأم أن غلبها الفرح حين رأت ولدها المضياع يعود إليها . أما الجنرال أوبيك ، الذى كان على علم بمسلك الفتى فى الرحلة من رسالة تلقاها من القبطان ، فقد هز كتفيه كمن نفض عنه كل أمل فى استصلاح الفتى .

وكان شارل فى دخيلة نفسه يستشعر الخوف من زوج أمه ، وهو يستر هذا الخوف حتى عن نفسه ، بالتظاهر بقلة المبالاة والمبالغة فى الاستخفاف ، وكان الفتى من العصبية بحيث يسىء إلى من يريد مرضاتهم ، وهو أسوأ تصرفاً إذا شعر بأنه غير موضع للرضى ، ثم فى طبعه فضلا على ذلك شىء من الانتكاس يدفعه خاصة إلى إتيان العمل الذى لا يشك أن فيه استفزازاً لمن يكبرونه وتغييراً لهم عليه ، ولقد يأسف على هذا التصرف يصدر منه ، ولكنه أبداً تصرفه الذى لا حيلة له فيه ، ولا معدى له عنه .

عاد بودلير إذن من الرحلة واستأنف الحياة بباريس فلم يأنس أحد أدنى تحسن فى سيرته ومتوجهه ، فهو كسابق العهد به مقارن لعشراء السوء ، لا يأخذ الدنيا مأخذ الجد ، ولا يتهيأ لعمل منتظم ، وكل ما جد فى الأمر أنه اليوم أكبر عمراً ، ولكنه ليس أرجح عقلا .

وكان الجنرال أوبيك لا يخلو من تصعب الخلق ، وتعقد الجانب فى تلك الأيام ، إذ تحرك عليه الألم من جراحة قديمة ، فهو ضيق الصدر لا يطيق الصبر على رؤية هذا الفتى فى العشرين من عمره لا يعمل شيئاً طوال يومه ، إلا أن يدور فى حجرات البيت يدخن أنواعاً من قصبات التبغ ، ولا يفتأ

يتعرض بالقول المخالف لما يرى الجنرال أوبيك أنه لا يعرفه ، وهو الحياة والأخلاق ، فإذا هو خرج ، فإنما يخرج ليقضى وقته فى المقاهى والمشارب ، مع عصبة من السفهاء المتاليف أمثاله ، وكان أوبيك لا يعفى الفتى من موجع النكير وغليظ القول على قبح سيرته ، والفتى يجيبه متحدياً متوقحاً غير مبق على مودته ، وكانت مدام أوبيك تشقى أشد الشقاء بدوام الخلاف وامتناع الوفاق بين أعز من فى الوجود عليها : ابنها وزوجها ، وهى لا ترجو من دنياها شيئاً إلا أن تراهما إلى جانبيها يعيشان معاً فى سلام ووئام .

ولكى تأمن مدام أوبيك ألا يقع صدام بينهما فى غيبتها ، عمدت إلى اصطحاب الفتى معها عند خروجها للزيارة . والفتى كدأبه لا يفوته شىء مما يجول فى خاطر أمه . فبينما هو معها فى زيارة لإحدى الأسر الكريمة من معارف أوبيك ، أفضى بالقوم الحديث إلى ذكر المرأة . فقال شيخ جليل كبير المقام من الحاضرين على سبيل التحية لصاحبة الدار (إن المرأة أبدع وأكمل خلق الله) فإذا الفتى فى كراهته للألفاظ الجوفاء وازدرائه لمجاملات الثناء — يبادره : (أوحقا تظن ذلك ، إنى أخالفك . النساء فى رأيى كالحيوانات الدواجن لا بد من حبسها و إيصاد الباب دونها . ومن الواجب القيام على تغذيتها والعناية بأمرها . ومن الواجب فى الحين بعد الحين ضربها وتأديبها) . ونترك للقارئ تصور الامتعاض الذى أحدثه هذا القول بين العلية المجتمعين فى حجرة الاستقبال الفاخرة . وأما والدة بودلير — وهى الشديدة الحرص على مواضعات المجتمع — فلم تدر أين تدور بوجهها من ارتباكها وخجلها . ومنذ ذلك اليوم لم يعرض على بودلير أن يغشى ذلك البيت .

ولم تمض أسابيع على مقام الفتى مع أمه وزوجها فى باريس حتى أخذ يثقل عليه جو الاستنكار وعدم الرضى الذى يعيش فيه — و إن يكن

هو موجده ، والمهيئ لأسبابه . فكبر عليه الأمر ، وعز الصبر .

وفى أبريل سنة ١٨٤٢ بعد شهرين من عودته ، بلغ بودلير سن الرشد . وقد حرص أوبيك ـ وهو دائماً المدقق المتشدد ـ على تقديم الحساب لابن زوجته حالما انتهى أمد قيامه عليه مقام الوصى . وكان الميراث مشتركاً بين بودلير وأخيه لأبيه . وقد أراد بودلير ـ كما هو المنتظر ـ نصيبه نقداً . فبيعت حصته من الأرض دون أخيه ، فكان له منها ٧٥٠٠٠ فرنك ، وللنقد فى ذلك الحين أضعاف قيمته فى أيامنا . فلا يغالى من يسلكه فى عداد أبناء البيوتات الميسورين . وأما فى وسط الأدباء البوهيميين من الحى اللاتينى فكان معدوداً من ذوى الثروة العريضة . وقد جاء على لسان صديق منهم وهو بانفيل فى معرض رثائه بودلير عند وفاته قوله : « لقد كان عظيم الثراء فمات فقيراً » .

وما كادت تتم لبودلير تسوية ميراثه ، حتى فارق دار الأسرة بعيداً عن الاستهجان والإنكار ، بعيداً عن هذا الرجل الذى يدخل فى روعه دائماً أنه مخلوق عاجز مضيع . ولقد اتخذ قراره ودبر تدبيره دون أن يطلع أحداً . فإذا كان فى عصر بعض الأيام تسلل من البيت تاركاً لأمه رقعة فوق منضدة الردهة أو فى موضع زينتها . ولعله آثر هذا الروغان اتقاء لموقف صاخب مع زوج أمه ، أو تفادياً من مشهد مؤثر مع أمه . وأما الرقعة فهذا نصها :

« إننى ذاهب عنكم ، ولن تروننى إلا فى حال أحسن من حالى معنويا ومادياً . ولذهابى أسباب عدة : أولها : ما ران علىّ من انحطاط فى القوى وخمود شنيع فى النشاط ، فأنا محتاج إلى الكثير من الوحدة للتسرية والاستجمام . ثانياً : أنه يستحيل على أن أكون ما يريدنى زوجك على أن أكونه ، ومن ثمة فأنا فى حكم من يسرقه إن أقمت عنده أكثر مما أقمت . وأخيراً إنى أرى من غير اللائق أن تكون معاملته لى على النحو

الذى أراه يزمعه . وأكبر الظن أنى مقبل على حياة صعبة ، ولكنى سأكون أسعد حالا وأهنأ بالا .

وسأكتب إليك اليوم أو غداً بما أنا محتاج إليه من متاعى ، وإلى أى مكان يكون إرساله . وهذا العزم منى راسخ قاطع ، وقد أمضيته بعد إعمال الروية وإطالة التفكير . فالشكوى منه لا موجب لها ، وإنما فهمه هو الواجب » .

واستطاب بودلير الحياة بعد هجرته الدار فى يونيه سنة ١٨٤٢ . إن الحياة لحافلة بما يمكن أن يفعله، وبما يمكن أن يكشفه ، وما يمكن أن يلابسه من خير ومن شر. لقد تخلص من الإحساس بالضيق ووطأة القهر فى جوار زوج أمه، فهو لا يرى شيئاً مستعصياً عليه ، أمامه الحياة الأدبية ناشطة جائشة . وهل كان أوفر نشاطاً وأكثر جيشاناً من الحياة الأدبية فى منتصف القرن التاسع عشر. وكان الاشتهار هيناً ميسوراً لمن له حظ من القريحة. ولقد اشتهر من دونه سنا ، ومن هم أقل منه موهبة . وكذلك كانت أمامه حياة اللذة والاستمتاع فى باريس . وباريس وقتئذ فتنة لا تعدلها فتنة . فقد بدأت تأخذ مظهرها الذى صارت به فيما بعد حاضرة الحواضر وعروس المدن الأوربية . عمّ التجميل شوارعها وميادينها ومبانيها وكنائسها ومقاهيها ومشاربها ، وقام بها قوس النصر ، واستكثر من مصابيح الإضاءة المستحدثة بالغاز حتى زهت لياليها الساهرة ، وحفلت بالمقيمين والزائرين من كل قطر ، واستحقت من ذلك الحين لقب « مدينة النور » .

ألقى شارل بودلير نفسه فى وسط هذه الحياة الحافلة المتفززة . وكان صادق النية على العمل مع ما فيه من انجذاب — كأهل العصر — إلى طلب اللذات . وكان همه الأول أن يجد المكان الموافق لإقامته . ولقد اختاره بعيداً عن الحى اللاتينى . فهو — وإن كان يوافق أصدقاءه

بالحى اللاتينى فى شهوة الحرية واحتقار المواضعات الاجتماعية ــ يخالفهم فى حرصه على النظافة والأناقة ، وإيثاره للمظهر والأبهة ، وتكلفه للتظرف والتزامه مراسمه. وقد استقر به المقام أخيراً فى فندق لوز ون Hôtel Lauzun (ويسمى أيضاً بيمودان Pimodan) حيث كان يقيم بعض السادة الغطاريف . فاتخذ به جناحاً وإن يكن دونهم إلا أنه مؤلف من بضع حجرات قليلة السعة عالية السقف مطلة على السين ، اشترى لها أفخر الأثاث من تاجر من تجار العاديات غالى فى ثمنها وأثقله بالديون حتى مات ولم يفرغ من وفائها جميعاً . ولا غرابة فى الأمر إذا علمنا أنه كان كلما كره بعض الصور أو الأثاث ردها للتاجر واستبدل بها غيرها ، مع زيادة الدين . وكانت الجدران مغشاة بالورق المخطط سيوراً عريضة سوداً وحمراً ، ولوحاتها منقوشة بالذهب ، وقد علقت بها صور شتى للرسام دلاكروا (Delacroix) مطبوعة على الحجر نقلا عن الأصل إلا واحدة أصلية تمثل الحزن . وكذلك صورة زيتية للرسام ديروى (Deroy) تمثل (نساء الجزائر) . وكانت على النوافذ والأبواب أستار من الدمقس القديم الصفيق . والأرض مفروشة بالطنافس الناعمة الوثيرة لا يسمع عليها وقع قدم . وكان الخادم يدخل بين الفترة والفترة فى سكون للقيام بالخدمة ، وكان بودلير نفسه يخافت الخطو حين يمشى بين ضيوفه يرشهم بالعطور الشرقية .

وهذا بعينه لون الحياة الذى شاع فى أواخر القرن التاسع عشر وأصبح هو النسق المحتذى عند المتأثرين بدعوة الجمال الفنى لذلك العهد .

ولقد صرف بودلير مثل هذه العناية إلى بزته وهندامه ، فكان يلبس أحياناً سترة من المخمل الأسود مشدودة إلى وسطه بحزام مذهب ، فيكون له بذلك مع شعره القاتم ، ولحيته الخفيفة المخروطة ، منظر أشبه

بتصاوير الرسام تيتيان . وأحياناً كان يلبس سترة طويلة مستدقة الذيل وسروالا ضيقاً من الجوخ الحالك اللون ، ثم الجورب من حرير أبيض . وأما القميص فمن الكتان الناصع دقيق النسج ، وأردانه مثناة عريضة ، منفرج الجيب عند العنق تزينه ربطة حمراء قرمزية . وقد يرى كذلك مرتدياً حلة زاهية الزرقة مذهبة الأزرار . وكانت معظم ثيابه التي يرتديها من رسمه وتفكيره ، وكان يعنت الحائك من فرط التدقيق في إخراجها مطابقة لفكرته . وبالجملة كان من الشبيبة المتحذلقة الهندام المتغطرفة ، وله في ذلك مذاهب وأقوال مأثورة .

لقد قلت زيارات بودلير لمقاهي الحي اللاتيني – كما أسلفنا ، وأخذ في أكثر أوقاته يغشى في العدوة الأخرى المقاهي الأنيقة التي كانت ملتقى الكتاب الإبداعيين ، من أهل الظرف والأناقة ، أمثال الفرد دى موسيه (Alfred de Musset)وروجيه دى بوفوار (Roger de Bouvoir)وغيرهما ممن كانوا يشغلون الناس بشكل هندامهم ، وألوان زينتهم ، وتنسيق أثاثهم ، وطرائف غرامهم ، قدر ما يشغلونهم بأدبهم في بعض الأحوال .

وكان بودلير إذ ذاك محدثاً من أبرع المحدثين . فلا يكاد يجلس إليه أحد إلا وقع تحت تأثير سحره . ولقد وصف « تيودور دى بانفيل » – وهو وقتئذ أسبق قدماً في عالم التأليف وله مكانة وشهرة – أول اجتماع له ببودلير وصفاً يدل على مبلغ انجذابه وافتتانه . « خيم الليل صافي الأديم ساجياً ساحراً ، فخرجنا من حدائق لوكسمبرج نمشي في شوارع البوليفار . وفي تلك الليلة التي ما برحت أعز ذكريات الصبا عندي ، غمرني بودلير وحدي بما لا حصر له من كنوز ذهنه وذخائره ، أشبه ما يكون بتلك الأميرة التي تحكى عنها القصة أنها كانت تساقط اللآلئ والدر من فيها . ولقد مضت بنا الليلة كلها سريعة خاطفة ونحن نتكلم » ولم يكن بودلير بحاجة إلى الخمر ليرسل الحديث حيا مشبوباً . فقد كانت تأخذه

نشوة الحديث إذا تحدث ، وما أعوزه قط موضوع للكلام ، وكان يتكلم في الجمال والسياسة والمعقولات فيستهوى الأسماع على حد سواء فيها جميعاً . ولا غرو أن يكون ذلك كذلك عند من يصف الحديث بأنه « المتعة العظيمة الوحيدة لكل ذى روحية وأريحية » .

ولكن بودلير لم يكن يقف عند سحره الناس ، بل كان لا بد له من إثارة دهشتهم ومفاجأتهم. فليس أحب إليه من ارتسام الدهش على الوجوه . فإذا جلس في مقهى من المقاهي يرشف قهوته بعد الغداء ، قضى الساعات الطوال يتحدث ، وقد أقبل عليه الناس من جميع الموائد . ومتى استحوذ على أسماعهم ، استغرق في مقعده ووضع ساقاً على ساق ، وجعل يتأمل ذوائب الدخان تتصاعد في الهواء من سيجاره الكبير ، وأنشأ يرجف :

« أنا — بحكم أنى نجل قسيس كاثوليكي — عليم بما أروى لكم . . . »

« حدث ذلك في الوقت الذى قتلتُ فيه المرحوم والدى الشيخ » .

ومن هذا القبيل الكثير مما ورد عن الشاعر في مذكرات بعض المعاصرين من الأمور الغريبة المنكرة .

على أن من يقرأ عن أوساط الفن والأدب خاصة في ذلك العصر ، يقرأ الكثير عن ضروب الإباحة والاستهتار ، وعن نوادى تدخين الأفيون والقنب الهندى ، وعن استطرافهم للرذائل وتكلفهم غرائب الأطوار . وقد أثبتنا للشاعر ما أثبتناه ، وأغفلنا ما أغفلناه ، ضاربين صفحاً عن ذكره ، ولم نجد ضرورة لتقصيها ما دام شاعرنا لم يختص بها .

زهرة الشر

فى عام ١٨٤٣ فى بعض الليالى عقب العشاء بأحد المقاهى الباريسية ، غادر شارل بودلير أصدقاءه الأدباء معجلا . ولعله شاء أن يأوى إلى داره ويعكف على العمل . لكنه درج فى الطريق مسترسلا ذاهباً على وجهه لا يبغى مقصداً بعينه . فتجاوز ساحة الأديون ماضياً طوع قدميه حتى قبيل نصب البانتيون ، فاستوقفه إعلان تافه ، لمسرح فى الحى صغير ، عن رواية ذات فصل واحد وأدوار غنائية . ولم يكن عنده شك فى سخافتها . ولكن هذا الرقيق الذوق ، المرهف الحس ، كان أحياناً لا يستكره هذه السخافات لما فيها من مباينة لتفكيره البعيد وتأملاته العميقة فدخل الملهى ، واستمع إلى بعض مقطوعات العزف والغناء . وقوبلت هذه بالتصفيق الفاتر المسترخى كأنه التثاؤب . وسكتت الموسيقى من الفرقة العازفة الهزيلة . وبدأ التمثيل على طريقته المعادة المألوفة ، فى حركة من المرح متكلفة النشاط سخيفة . ثم ظهرت — فيمن ظهر على المسرح — خادمة لفظت ثلاث كلمات لا أكثر . فاشرأب لها بودلير كالمستغرب . إنها جارية مولدة ، ولا تشبه من معها من الممثلات ، طويلة القامة ، لها خصر نحيل مفرط الدقة ، وأرداف جزلة مستعرضة ، ونهد قاعد على صدر نحيف . وبالجملة كانت تخالفهن بشىء من المبالغة فى تقاطيعها وبضرب من التموج فى مشيتها . وما لبث بودلير أن عرته هزة . وعمد إلى البرنامج الذى بيده يتعرف على اسمها : (الآنسة جان ديفال) . ولما لم يكن فى هذا غنية ولا شفاء غلة . فقد استطلع خبرها ، فعلم أنها حديثة العهد مبتدئة ، وأنها لا تظهر بعدها فى رواية الليلة ، وأن دورها فى التمثيل لا يتجاوز قط عبارة قصيرة مما تقوله الخادمة ، تعلن قدوم زائر

أو تؤذن بأن المائدة جاهزة . وليس يخفى أن الأمر فى هذه المسارح الماجنة يسّر والوصول مباح . ولكن السيد بودلير مع هذا لم يقصد من فوره إلى ما وراء الستائر لمقابلتها كما هو المألوف مع أمثالها . بل ابتاع باقة من الزهر أرسلها إليها ، مع بطاقة يعرب فيها عن أمله فى أن تسمح باستقباله فى اليوم التالى .

وانصرف بودلير مبلبل الخاطر . وبلغ إلى داره فى شارع فانو Vaneau مهتاج الشعور مشبوب الخيال . لقد انطلقت فى نفسه نزعة عارمة هوجاء . هذه المرأة بقامتها المحطوطة المتنين أقامت قيامته . إنها الصورة العالقة بذهنه للنساء الوطنيات فى جزيرة موريس فى المحيط الهندى ، وقد ظلت صورة أجسامهن ومشيتهن طويلا كالوسواس الملازم مسلطاً على نفسه معذباً لحسه . لقد ذهل بودلير عما كان يفكر فيه من عظة ماضيه وانصرف عما كان يدبره لمستقبله . نسى كل شىء إلا هذه المرأة .

وليس من شك فى أن جان ديفال دهشت لما تكلفه هذا السيد من أدب فى تصرفه معها ، وللباقة من الزهر والبطاقة الناطقة بالاحترام . ذلك شأن لا عهد لها به . وزاد دهشتها حين حضر للمسرح . إنه أخذ يتحبب إليها ويتصباها بالإشارة اللطيفة والكلام الغزل. وهو — إلى هذا — فتى وسيم ، غض الإهاب ، سبط القوام ، فاحم الشعر ناصع الجبين ، له نظرة عميقة نافذة طويلة الإمعان ، وفم أغرّ الثنايا ، وشفاه منفعلة الحنايا فيها شهوة وسخرية ، وأنف أذلف خياشيمه رقيقة خفاقة ، وعلى ذقنه نونة غائرة ، تهفو على وجناته حمرة خفيفة إلى جانب زرقة عذاره الحليق المذرور . كما أنه مترف الملبس أنيق الهندام ، شديد العناية بيديه تطرية وبأظافره تقليماً. وبالجملة فتى من أهل النعمة وأبناء البيوتات .

بدت هذه المراسم من الفتى معها شاذة غريبة ، ووقعت لغته فى

سمعها غامضة معقدة . فيم هذه الغزليات؟ ولمن هذه الاحترامات ؟ أتراه يستهزئ بها ! أهو مخبول ! ونظرت إليه نظرة فاحصة ، نظرة بنت الهوى تفحص العميل الجديد . واقتضى خبث هذه المخلوقة ألا تبيحه فى ليلته من نفسها ما تبيحه للآخرين . وتصنعت الفتور من جهته . والعجيب أن هذا المرتاد لأحط بؤر الفساد ، الخبير بأساليب المماكسة والمساومة فى أثمان الملذات ، ركبته الغفلة فى هذه المرة ولم يفطن إلى وجه الحيلة . وأخيراً فى ذات ليلة اصطحبته جان إلى غرفتها فى شارع القديس جورج .

ولكن ، من ذا تكون جان ديفال هذه ، فى أى أرض نشأت ، ومن ناسها ، وماذا جاء بها ؟ ؟ لا أحد يدرى . وإنما يزعم الزاعمون أنها ولدت فى سان دومنج (بجزيرة هايتى من جزائر الأنتيل الكبرى فى المحيط الأطلسى بين الأمريكتين) . أما كيف قدمت إلى باريس ، وما أحاط بقدومها من ملابسات فلا يدرى أحد من أمرها شيئاً .

ولقد اختلفوا حتى فى وصف شخصها . فيقول بانفيل على عادته من التجميل « إنها جارية مولدة ، مديدة الشطاط ، غريرة رائعة ، تعلوها جمة شعر مفلفل . وهى تختال كالملكة ، بل إن مشيتها تجمع بحسنها النافر سيماء الألوهية والحيوانية معاً » .

ويذكر براروند (Prarond) فى اعتدال « أن جان لم تكن بالمفرطة السمرة ، ولا المفرطة الحسن ، شعرها أسود جعد ، ويكاد صدرها يكون أمسح أجب . مديدة القامة . لا تحسن المشية » ويقرر جيل بويسون (Jules Buisson) كالمستنكر « أن لها وجنتين ناتئتين ، ولوناً أصفر كابياً ، وشفتين حمراوين ، وشعراً وحفاً متموجاً فى حد الجعودة » .

ولكن مالنا ولهؤلاء الشهود ، وعندنا رسوم لها بريشة بودلير ، وبودلير يرسم بيد متمكنة ثابتة . لقد ورث الملكة عن أبيه الذى كان بعد اعتزاله

الوظيفة يسمى نفسه فى شجاعة رساما . ولئن لم تكن صوره التى رسمها لجان ديفال بأبدع الرسوم إلا أنها تشعرنا كل الشعور بالقوة البهيمية فى هذه المرأة ، لاسيما الصورة التى كتب فى أدناها كلمة قالها القديس بطرس فى وصف الشيطان (يطلب إنساناً يفترسه) ، وهى فى هذه الصورة ذات عينين سوداوين نجلاوين « أشبه فى سعتهما بقصاع الحساء » على حد تعبيره ، وشعرها غيهب حالك جثل كاللبد ، وأنفها أذلف ، وشفتاها غليظتان باللحم ، وثدياها ناهدان متباعدان بارزان على صدر أعجف . أما قدها فأهيف لدن المعاطف يتعارض وروادفها اللفاء المكتنزة ؛ وبالجملة فهو جسم هلوك فاجرة لا تشبع لها نهمة : جسم عرف كل شىء ، واستباح كل شىء ، تعلوه طلعة بليدة ماكرة . أما العقل فعدم ، أما القلب فعدم ، وهذه هى المعشوقة التى افتتن بها الشاعر .

هنا يعاود القارئ السؤال : ومن حقه ألا يقضى عجبه ، وأن يديم تساؤله : « وماذا أوقعه فى عشقها ، إذا كان هذا وصفها ؟ »

فنعيد هنا أيضاً ما سبق أن ذكرناه من عودة الشاعر الفتى منذ عام أو يزيد قليلاً من الرحلة التى أجبره عليها أهلوه سدى ، لاستصلاحه وصرفه عن الشعر ومزاولة الأدب ، وفى هذه الرحلة الإجبارية على مركب من المراكب التجارية ، دار الشاعر حول القارة الإفريقية وجاب بحر الهند ومر بمدغشقر وجزيرتى موريس وبوربون ، ومن هذا السفر الطويل الشقة احتقب الشاعر كما قدمنا وهجاً حاراً بقى زاده وعتاده طوال حياته ، وخيالا باهراً لبث نجىّ يقظته وسمير أحلامه حتى مماته ، فقد راعته تلك البلاد النائية بشمسها الساطعة ، وبلياليها الصافية الساحرة تتلألأ فيها النجوم قريبة دانية ، وبالنباتات الباسقة الهائلة الفاغمة الشذا ، وبيوت الأصنام العجيبة وتهاويل الآلهة الممسوخة المعبودة ، ولجج المحيط الهندى الزرقاء الرجراجة ، المطردة الهزج والتراتيل ، وهاته الشخوص السمر

المترائية بأجسام ممشوقة نصف عارية ، مؤتزرة برياط ملونة زاهية ، وسائر هذه الطبيعة التى لم يعهدها بكل حرارتها وقوتها وغنى ألوانها .

فلما أن حم القضاء ووقعت نظرته على جان ديفال هذه، تحرك حنينه إلى مجالى الطبيعة فى تلك الآفاق ، وهفا حسه إلى ما فاته من حياة الغريزة بين أحضانها ، فهيامه ليس هياماً بها وحدها ، بل بكل تلك الآفاق من طلاقة غريزة وفتنة طبيعة ، وهى ليست امرأة فحسب ، إنها (آسيا المتفبرة ، وإفريقية المحرقة) . وحسب القارئ أن يسمع إلى قصائده فيها ، ليتمثلها كما هى فى خيال الشاعر ، فهى عنده الشمس العظيمة الساطعة على البحر اللجى ، وهى سعف النخيل المتأودة فى نفحات النسيم الساخن الوانى ، وهى شذا المسك الأذفر يتضوع فى جنح الليل . . . وبعبارة موجزة هى جميع ما أحسه واجتلاه واستنشاه فى أيامه ولياليه فى تلك الجزائر الساحرة :

« حين أكون فى ليلة دفئة من ليالى الخريف إلى قربك
« أستنشق مغمض العينين شذا صدرك الحار
« تتراءى لى شواطئ سعيدة
« تسطع عليها شمس صالبة متوهجة شديدة .

* * *

« هى جزيرة متفترة كسلى
« حبتها الطبيعة أشجاراً فريدة وثماراً شهية
« ورجالا أجسامهم ممشوقة قوية
ونساء يخلبن اللب بنظرتهن الغنجة الناطقة

* * *

« ويحملني شذاك إلى آفاق ساحرة
« فكأني بمرفأ يحفل بالقلوع والصواري
« وهي لما تزل منهوكة من عراك اللجج
« وهذا أريج شجر التمر هندي
« متضوعا في الفضاء يفغم حسي
« ويمتزج بأغاني الملاحين في نفسي » ..

فكيف يقوى الشاعر على ترك هذه المرأة ، وهي هذا العالم جميعه عنده ؟ إن مظهر التسليم والخضوع المعهود في أمثالها من الجواري الخلاسيات ، وعادة التضمخ بالطيب المركبة في غريزة النساء البدائيات . كان فيها شبع حسه ومنطلق خياله . وإلى هذا وذاك ، جسدها الممشوق المبتل ، الجزل التقاطيع ، وما يعرضه هذا الجسد تحت نظر الفنان من الخطوط والاستدارات في سكونه ؛ ومن شتى التواليف المتغيرة المتقلبة في تثنيه وحركته ، يستطيره العجب إذا سكنت في ضجعة من ضجعاتها فيردد هتافه :

« إني مبغض للحركة التي تنقل الخطوط من مواضعها » .

ويستخفه الطرب إذا هي خطرت أمامه فيغني أغنيته المرقصة :

« من رآك في غير تكلف تخطرين
« حلوة الاسترسال على السجية
« يحسبك أفعى ترقصين
« على طرف العصبية » ..

فهو مجنون بها ، متيم في حبها على الحالين : حالها وهي مقبلة مدبرة

فى الغرفة ، عارية القدمين ، وليد شعرها الكثيف مرسل أشعث ، تخطر خطرتها ، رافلة فى غلائلها النفيسة التى تفرغها على جسدها مباشرة دون عناية بها وتكلف لهندامها ، وحالها وهى مضطجعة على الأريكة صامتة جامدة ، شاخصة العينين فى الفضاء بنظرة قاسية براقة مظلمة ، حيث تأخذ الشاعر بغموضها وفجورها ، وتروعه بجمودها وضراوتها :

« فى غلائلها الفهفافة المتلألئة
« تمشى مشيتها فتحسبها راقصة
« كتلكم الأفاعى الطويلة المائسة
« يرقصها على أطراف العصى حواة المعابد المقدسة

* * *

« وتارة هى كالرمال الموحشة ، وقبة السماء على الصحراء
« كلاهما لا يحس ما يلقى ابن آدم من برحاء
« وكغوارب الموج المتدفقة المطردة فى صفحة الدأماء
« تضطجع مسبكرة متمددة فى غير اكتراث

* * *

« فى عينيها البراقتين جاذبية كأنهما من معادن سحرية
« وفى ذاتها يأتلف الملاك الطاهر الكريم
« وأبو الهول ، الحيوان الطائر ، ذو اللغز القديم
« وكل شىء فيها ذهب وفولاذ وبريق وجوهر

* * *

« ويشرق مدى العمر فى تلك الذات الغريبة الرمزية

« إشراق الكوكب المهدور الضياء فى الفلاة اليهماء

« ذلكم الجلال الخامد فى المرأة العقيم » .

فالشاعر كما رأينا واقع فى أسرها ، مترام عند قدميها ، يعبدها بجملتها ، ويعبدها فى دقائقها وتفاصيلها . ولو كان يتسع لنا المجال هنا لأوردنا قصيدته (فى شعرها) : تلك الجمة الوافرة ، والأجمة العاطرة ، وبحر الآبنوس اللجى . ورواق الليل الدجوجى – ولأثبتنا نظمه (فى حليها) تلك الحلى المصلصلة الموسوسة بصوت ساخر ظافر ، اللامعة المتألقة بالمعدن والجواهر . جامعة فى السمع والعين بين الرنين والبريق – ولسقنا أوصافه لعينيها ، وحاجبيها ، وشفتيها ، وكل جزء من تقاطيع جسمها ، وانعكاسات الألوان عليها فى كل ساعة من ساعات النهار ، من سدفة السحر إلى ورس الأصيل ، ومن ضوء القمر الناعم إلى نار المدفأة – فضلا عن مشيتها ، وكل حركة من حركاتها ، بل كل لفتة باطنة من لفتات حسها الغادر ونفسها المظلمة . ولقد يتكرر ما يصفه منها ، ولكنه لا يتكرر إلا ليفيد مزيداً فى الإيضاح و إحاطة بنواحى الموضوع . وحسبنا على سبيل الإيضاح أن نورد بعض إشاراته – فى تشبيبه بها – إلى رائحتها . فهى شئ لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده فيها . ولقد تغزل بودلير فى غير واحدة من النساء ، ولكنه لا يخص غير هذه السمراء بنت البلاد الحارة بهذا التنويه برائحة عبيرها :

« على جسدك يحوم العبير »

« كما يحوم حول المجمرة متصاعد البخور » .

وفى قصيدة أخرى :

« يالشعرها ! يالعطر المشبع بالفتور !

« لئن هفت النفوس مع حلو النغمات

« فإن روحي — ياحبيبتي — تسبح من عطرك في غمرات »

وفي أخرى :

« شعرك الأثيث الكثيف الغَفورْ
« ذو العبير الفاغم الحاد
« كبحر من العطر رجراج لايستقر .
« أمواجه من زرقة وسواد » .

وفي غيرها :

« ومن فرعها إلى قدمها
« يتضوع حول سمرة جسمها
« نفحة فاغمة وشذاً ذو خطر » .

بل شاعت حاسة الشم الدقيقة التي رزقها الشاعر أن يخرج من التعميم إلى التخصيص . فذهب في وصفه رائحتها إلى حد تحليلها وتحقيقها .

« أيتها الربة العجيبة
« السمراء الإهاب مثل جنح الظلام
« الممزوجة العطر بمثل رائحة المسك والتبغ » .

وهذا من جهة الأوصاف الحسية . أما من ناحية الأوصاف المعنوية فهو يردد معنيين يستهويانه فيها . هذا الكسل الذي يتعارض مع نشاط الغرب المحموم وهو يسميه (الكسل الخصيب الحافل) ، ثم سيماء الحزن وهو عنده نظير الحسن . ولاجتماع الحزن والحسن عند بودلير معنى بليغ الأثر في نفسه ؛ ولا بأس بعد ذلك على صاحبتهما من الجهل وبلادة العقل :

« ماذا يعنيني عقلك

« كوني جميلة وكوني حزينة » .

وغني عن البيان أن جان ديفال لم يكن لها هذا الشأن إلا في عيني الشاعر — ولا نعني مطلق الشاعر ، بل بودلير بعينه . وذلك لجملة الأسباب التي أوردناها بما كان لها من التأثير على مزاجه وخياله . ولكنه كان مع هذا عسيا أن يتركها بعد حين إلى سواها ، بعد أن عرف ما عرف من انحطاطها وخبث نفسها ومقاذر خيانتها له ووبالها عليه ، لولا أن هناك سبباً آخر هو سر من الأسرار الخفية المخزية يقيده إليها . ذلك السر هو أن انحطاط هذه المرأة عنه بما لا يقاس ، ثم أفانين تهتكها بلا حد جعا من ضعفه قوة ، وتغلبا على حيائه ، فذاق في قربها متعة لم يذقها كاملة ناهكة إلا بين ذراعيها . فهو من أجل هذا يحبها هذا الحب كله . وهو من أجل هذا يحتقرها ويحتقر نفسه الاحتقار كله . وفي سبيل هذا انقلبت حياته طوال الأيام التي عاشها أعنف ساحة وأدمالها لعراك الخير والشر ، والنور والظلام . ولن يضل قارئ شعره بعد افتضاح سره عن فهم عباراته المقتضبة المتقطعة ، وإشاراته الموجزة القاطعة ، وتشبيهاته الممسوخة ، وتهاويله الغريبة ، ونوازعه المتضاربة ، وتمرغه المستهتر في حمأة الدرك الحيواني مع تهلله الباطن للفجر الروحاني وسناه الشعشعاني .

فى قرارة الهاوية

رغب بودلير في أن تهجر جان ديفال المسرح لتكون له خالصة . ففعلت غير خاسرة . لقد كانت فى الطبقة الدنيا من بنات المسرح ! وما نزلت بهجرانها التمثيل عن مستقبل زاهر ولا عطلت ملكة مرجوة ، واستتبع هذا بطبيعة الحال التزامه بها وهو وقتئذ لا يزال موفور الرزق من حصته فى مال أبيه . ولما كان بين شارع فانو الذى يقيم فيه الفتى ، وشارع سان جورج الذى تسكنه الفتاة ، شقة بعيدة مع صعوبة أسباب الانتقال لذلك العهد ، فقد دبر العاشق الأمر . فاتخذ جناحه الذى أشرنا إليه فى الفندق الفاخر المعروف باسم لوزون أو بيمودان ، وأثث لها سكناً أنيقاً فى الشارع المجاور ، شارع المرأة بلا رأس (وما أليق التسمية بها) . وقد آثر الشاعر المجاورة دون المساكنة ، حرصاً منه على حريته وعلى أغراضه الأدبية العظمى وما تتطلبه من تفرغ للدرس . ووافق ذلك هوى جان أيضاً ، حتى لا تكون ليل نهار فى عشرة هذا المفتون الذى لا ينى يسود الصفحات بالكتابة ، أو يفيض فى كلام غير مفهوم . فحسبها أن يذهب إليها كل ليلة ويعود منهوكاً وهى مطمئنة إلى بقائه لها ، عليمة بما يقيده إليها .

وزادت مطالب المرأة . وكان بودلير بطبعه متلافاً يتسرب المال من بين أنامله جزافاً ، فبدد فى هذه المدة الوجيزة أكثر من نصف ميراثه . وخشى الساهرون عليه من العاقبة وهو سادر فى غلوائه ، يتلف صحته وشرفه وشبابه . فرفعت أمه وزوجها الأمر إلى مجلس القضاء فى سبتمبر سنة ١٨٤٤ إنقاذاً له من سوء المصير . فأقر المجلس حرمانه من التصرف فى البقية الباقية من ماله وقضى له بريعه ، وذلك تحت إدارة أحد مسجلى

العقود من أصدقاء الأسرة .ولكن هيهات يفى الريع بنفقات الخليلة ونفقاته. ولقد كان العراك ينشب من حين لآخر بينهما فاشتدت بعد ذلك حدته وتقاربت فتراته . وانحدر فى مهاوى الدين فطفق يستدين ولا يوفى . وإذا وفى القليل عاد إلى استدانة الكثير . ولم تسلم أمه من مطالبه ، فظل يلاحقها حتى آخر لحظة من حياته . وهى توجه إليه فى الخفاء اليسير الذى تدخره ، مشفوعاً برسائل منها يلطف حنانها ما تتضمنه من ملام . فيلقى الفتى بالرسائل دبر أذنيه وينفق المال على المحظية قعيدة شارع المرأة بلا رأس .

وكان بودلير على الدوام شديد الشغف بالنبيذ الأبيض ، فزاد عليه معاقرة الخمور القوية وأنواع الكحول ، وإدمان القهوة والإكثار من التدخين . وكأنما هذا لم يكفه فعمد إلى الأفيون يتعاطى خلاصته ومركباته ، ثم انتهى أيضاً إلى القنب الهندى — وكان بدعة العصر فى باريس — فانتظم فى نادى الحشاشين فى فندق بيمودان يستمتع بهذا العقار العبق المخدر ، فى صحبة من أصحاب الفن وغيرهم ، وهم جميعاً أصلب منه بنية وأمتن أسراً ، فإذا أوى آخر الليل إلى جان استأنف معها المعاقرة والانغماس فى الموبقات كما يجدر بفتاة مثلها من الساقطات .

هذا كله وضيع موجع . وهو يحس ضعته ووجيعته أشد الإحساس ، ولكنه معذب العاطفة ملتاث الأعصاب . فإذا نجا بنفسه وطلب الخلاص من الرذيلة شعر بالوحشة المطلقة والفراغ المرهق ، فيعود على رغمه عودة الملهوف ، رافعاً إلى (ربة الحسن السوداء) أحر التوسل والرجاء ، ويناجيها هائماً ناقماً مستعطفاً :

« أهيم بك هيامى بقبة الليل
« يا آنية الحزن ، ياحليفة الصمت !
« وزاد فى حبيك أنك تجافينى

* * *

« وأنك يا زينة لياليّ — فى جفاك وسخرك
« تباعدين الشقة بين ذراعيّ
« وبين سمواتك الداجية الصافية

* * *

« ولكني أبداً عارج نحوك أساورك وأصعد إليك
« كما يصعد إلى الجثة فوج من الديدان
« أنا — أيتها الضارية التي لا تشتفي لها غلة
« عاشق وامق أهوى حتى جفاك
« فأنت به أبدع فى ناظري وأروع »

وكان الشاعر من هيامه بها يتوسم فيها إلى جنب رذائلها الفاضحة الجمة بعض الخصال الطيبة .. فإذا به يفجع فى هذه البقية فقد تكلف أن يعلمها ، فإذا هى مغلقة الذهن مؤثرة للجهل لا ينفع معها تثقيف وهي تقرأ خطاباته وتفتش ثيابه وتفتح أدراجه لعلها تجد فيها ما تستخدمه يوماً ضده . وهى لا ترعى له عهداً ولا تحفظ له جميلا ، ولا تدعه لحظة يفرغ إلى عمله . وتفعل كل ما فيه مضايقته ، حتى كان ينام نهاراً ليقوم بالليل وهى نائمة يغالج بعض الكتابة المطلوبة منه . ولا يقع نظرها فى نظره حتى تقع بينهما شر المشاحنات . ولقد بلغ من إثارتها له أن أهوى عليها بشمعدان ، وصدم رأسها بالمنضدة صدمة شجته . وهو يحمد الله — كما قال فى خطابه لأمه — على خلو بيته من سلاح ناري وإلا فإنه لا يدري ما كان فاعله فى مثل هذه الثورات التي تسوقه هذه المرأة إليها فلا يكاد يملك نفسه .

وفى ثورة كهذه نظم الشاعر العاشق المقطوعة الآتية وهى صرخة اليائس

العانى ، لا قوة له على الخلاص من هذا الإسار أو تموت آسرته . لا خلاص إلا بقتلها ! فإنما للفكاك من ذراعيها يفكر فى الإجرام لا لشهوة الانتقام :

« أيتها الداخلة فى قلبى الشاكى كطعنة سكين
« المقبلة فى قوة كعصبة من الشياطين :
« المفتونة المتبرجة
« اتخذتْ سريرها وملكها فى عقلى الراغم المسكين

* * *

« أيتها الساقطة التى أنا موثق بها
« كالسجين بأغلاله ، ورهين المقامرة بالمقامرة
« والسكير بزجاجة الشراب ، والديدان بالجيفة
« لعينةٌ ، لعينةٌ أنت !

* * *

« ناشدت الخنجر القاطع أن يمكننى من حريتى
« وهتفت بالسم الزعاف أن يغيث نذالتى
« فأزرى بى السم والخنجر وناجيانى :
« لست أهلا لإعتاقك من أسرك المنكر

* * *

« يا مأفون ! — لو عملنا على موتها
« وإنقاذك من سلطانها
« لأحييت بحرارة قبلاتك
« جثة معذبتك ومستنزفة دمك » .

وعاش شارل بودلير وجان ديفال فى صراع صامت لدود . ولم يكن الذى بينهما صراع الرجل والمرأة فقط ، ولا صراع الأجناس فقط . بل صراع الأنواع . ودارت المعركة بغير مهادنة ، معركة حياة أو موت ، معركة غرام يشبع جسده وتجوع منه نفسه .

شخصية مركبة

مهما يكن من انغماس بودلير فى الشر الذى انغمس فيه ، فإنه كان محتفظاً — طوال العمر وفى جميع الأحوال التى عركته — بقوة يرتفع بها على تلك الغمرات المهلكات . فهو يخوضها ويوغل فيها مرتطماً مشرفاً على العطب ، ولكنه لا يدعها تبتلعه .

إنه عاش ما عاش بين أحضان الرذيلة ، ولكنه ما نسى العمل قط . ولا عبرة بأنه لم يعرف فى المدرسة بالاجتهاد ، ولا عبرة بأن أهله لم يعهدوا فيه إلا فتى فارغاً خالياً متبطلا ، ولا عبرة بأن الأكثرين لم يروه إلا متطرفاً عابثاً لاهياً ، بل لا عبرة بأنه هو نفسه كان دائم الشكوى من عدم استطاعته حمل نفسه على العمل فالعمل ليس واحداً . ونعنى العمل عند أهل الفنون أنفسهم . فمن الكتاب من كانت لهم ساعات كل يوم للكتابة والتأليف . بل نجد بين الشعراء فكتور هيجو يقف إلى منضدته فى كل صباح وقفة النجار ، يحك بريشته المتخذة من قوادم الأوز صفحات بعد صفحات ، لا يتوقف إلا ليزدرد كعادته بيضة فى الحين بعد الحين ، ثم يستأنف النظم ، مع ما هو مطلوب فى الشعر من صناعة واستلهام ، وذلك طول سنى حياته وما كانت حياته بالقصيرة . هذا مثل للعمل ومثل رائع . ولكنه ليس المثل الوحيد . فهناك ما يشبه للناس أنه الكسل ، ولكنه الكسل الخصب ، أو — بعبارة أخرى — العمل السلبى وأقرب الأمثلة على ذلك بودلير . فإن بودلير مع اتهامه نفسه بالكسل ، كان من أدأب الناس على العمل ، بل كان مطبوعاً عليه . فهو منذ الطفولة لم يسمح لنفسه أن تستريح ، بل كان دائب الدراسة لأمه ، يحلل عواطفها ، ومواقفها من أبيه وابن أبيه وخادمة أبيه المتسلطة على تدبير المنزل ، ثم مواقفها منه بعد وفاة الزوج الشيخ و بعد ذلك منذ اتصلت

بزوجها الجديد . وكذلك كان فى سائر علائقه بالناس ، بل فى أخص لحظات لذاته وصرعات شهواته ، يقظ الفؤاد صاحى الوعى ، لا يكف عن الدرس . فهو من تلقائه وفى غير كلفة ، يستقصى موضوعات حسه ويسبر أغوار نفسه .

هذا من ناحية العمل السلبية . أما الإيجابية فحسبنا أن نرجع إلى أصول منظوماته وما أدخله عليها المرة بعد الأخرى من التنقيح والتهذيب ، شأن المتنطس لا شأن الموسوس . فإنك ترى اللمسات التى تزيد القالب حسناً والمعنى صدقاً ، فإذا البيت من الأبيات بعدها أطبع وأصنع . وما كانت هذه التوفيقات لتقع إلا بدوام الطلب ، وإيقاظ الذهن لها ودوام التفكير فيها ، مع استفزاز الخيال وتدقيق الذوق . وبودلير كان يفعل هذا طول الوقت . ولكنه كان لا يفعله وهو إلى منضدة العمل . وإنما يفعله وهو متسكع فى طريق ، ومتبطل فى المقهى ، بل فى أحضان جان ديفال .

ولم يكن أبغض إلى بودلير من التكسب بالكتابة . فكان الرجل الممتاز فى نظره هو صاحب الفراغ والثقافة الواسعة ومن يتوافر فيه الغنى وحب العمل .

فلما غاضت موارد بودلير من بقية ماله الموروث ، منذ وضعت هذه الموارد فى يد قيم من أصدقاء الأسرة لم يكن يصرف للشاعر إلا ما يقيم به أوده ويفى بالتكاليف الضرورية لحياته اليومية ، دون حساب لنفقاته الكثيرة على نفسه وعلى خليلته السوداء السكيرة ، لم يبق أمام شاعرنا الخاوى إلا احتراف الكتابة لكسب معاشه ، ولما كانت له منذ حداثته الأولى فى منزل أبيه ألفة باللوحات الفنية وقد لازمه هذا الحب للتصاوير طول صباه ، ثم كانت بعد ذلك معرفته للرسام « ديروى Deroy » وتردده معه على مراسم الرسامين والمثالين وغشيانه فى الحى اللاتينى للمقاهى التى تغص بالنقاد والفنانين فلا عجب إذا رأيناه يسترعى أنظار أهل المعرفة حين طرق النقد الفنى بما نشر عن «معرض ١٨٤٥» "Le Salon de 1845" من مقالات

تمتاز بالأسلوب المتين القوى المنمق الطلى معاً ، كما تمتاز بما تتضمنه من أفكار جريئة وحصيفة عن أعمال الفنانين ثم أعقب ذلك بعد عام بمقالات عن « معرض ١٨٤٦ » ، تفوق فيها على نفسه فضلا عما دبجه من الفصول الأدبية فى شتى الموضوعات ومنها قصة « فانفارلو Le Fanfarlo» التى ظهرت فى يناير سنة ١٨٤٧ .

وعلى حين فجأة انقطع سياق هذا النشاط المطرد الذى كان ديدنه فى تلك السنوات ، وكان السبب اشتغاله عن الأدب بالسياسة التى كان حتى هذه الساعة غريباً عنها لا يفكر فيها فلقد جرفه ذلك التيار الفوار الجياش بالانفعالات والأفكار الذى أدى إلى ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ ولم يكن لشاعرنا عن ذلك مندوحة فقد كان يسكن وسط حى الطلبة فى باريس ويتردد على مقاهى الضفة اليسرى وكانت تربطه أوثق الصلات بالكثير من الكتاب والشعراء من الحزب الاشتراكى . بيد أنه لا يستبعد أن يكون هنالك فى الوعى الباطن سبب كامن بعث الشاعر إلى المشاركة فى الثورة ضد الملكية ، وهو كراهته لأحد قوادها وهو زوج أمه الجنرال أوبيك . ويرجح ذلك ما زعمه بعضهم من أنه رأى الشاعر وفى يده بندقية جديدة وهو يصيح وسط جلبة الثوار « هيا نعدم بالرصاص الجنرال أوبيك» وأيا كانت حقيقة الحال فإن بودلير لم يلبث أن عاد إلى الاشتغال بالشعر والأدب والنقد الفنى والاستغراق فيها دون السياسة كسابق عهده .

وكان بودلير قد أخذ يقرأ منذ عام ١٨٤٦ ما كان يظهر فى الصحف والمجلات الفرنسية من تراجم لقصص الشاعر الأمريكى المعاصر « إدجار ألان بو "Edgard Allan Poe" وما كان يخلعه الكاتبون على مؤلفها من عبارات التقدير والإطراء : وكان بودلير قد تعلم الإنجليزية منذ طفولته ، ولما كان ما قرأه للشاعر الأمريكى فى تلك السنة قد حرك نفسه من أغوارها فقد لجأ بودلير إلى بعض الأمريكان المقيمين فى باريس

لإعارته مجموعات الصحف والمجلات التى كان « بو » يديرها أو يكتب فيها إذ لم تكن أعماله وقتئذ مجموعة فى كتاب . وكم كانت دهشة بودلير عظيمة حين وجد للأديب الأمريكى قصائد وقصصاً يؤكد بودلير أنها سبق أن وردت على خاطره ، ولكن فى صورة مختلطة مشوشة مبهمة ، على حين أحسن «إدجار بو» نظمها والبلوغ بها إلى حد الكمال . ولم يلبث أن عكف الشاعر الفرنسى على ترجمة ما يقع تحت يده من مؤلفات الشاعر الأمريكى . وكان أول ما نشره من تراجمه فى مايو عام ١٨٤٨ ثم ظلت هذه التراجم شغله الشاغل سبعة عشر عاماً ، حتى قبيل وفاته .

وعلى الرغم من أن هذه المقالات الفنية والفصول الأدبية ، فضلا عن الترجمات عن الإنجليزية ، قد كتبها بودلير تحت ضغط الحاجة إلى المال ، فإن بودلير لم تفارقه طبيعة التجويد . فكان ينتج اليسير بعد الجهد الكبير . وكانت الصحف التى يراسلها ، فضلا عن الناشرين لا تعطى الكثير ، فهان عليه أن يستدين ، ويلجأ طوال الوقت إلى أمه ويطرق باب أصدقائه . هان عليه التفريط فى كرامته إنساناً ، ولم يهن عليه التفريط فى كرامته فناناً . وما كان ذلك الاهتمام منه مقصوراً على توليداته وبنات أفكاره ، بل اشتمل كذلك على ما اضطلع به من تراجم لأقاصيص الكاتب الأمريكى إدجار بو Edgar Poe . ولقد تعجل ذات مرة فى تقديم بعضها للنشر لحلول الموعد المتفق عليه مع الناشر ، وقبض منه الأجر . فلما اطلع على تجارب الطبع لم يرض عنها تدقيقه ، واستولت عليه وساوسه ، وملكه شعور بالتحرج والإثم ، وغلبه حب الكمال ، فوقف طبعها ودفع مصاريفه على قلة ما بيده ، وانفسخ العقد الذى بينه وبين الناشر وساءت عنده سمعته . وهو فى أثناء ذلك يعانى أشد الفاقة ويكاد يموت من البرد لعجزه عن شراء وقود للمصطلى ، وقد رثت ثيابه حتى كان يخشى عليها أن تتمزق من أدنى حركة . ومن المحقق أن بودلير فى أخذه نفسه بهذه الشدة . والمبالغة فى

التدقيق والتجويد ؛ لم يكن ينظر فى ذلك إلى إرضاء القراء ، فإن سوادهم الأعظم أميل إلى الترخص . ولكن حاسته الفنية كان يؤذيها القصور والنقص ، وتنشد فى كل شىء التمام والإحكام . ومن أقواله هذه النبذة : « كان للمستبد الرومانى نيرون عادة محمودة . فقد كان يجمع فى الساحة العامة للألعاب جميع الشعراء المقصرين السخفاء ؛ ويجلدهم بمشهد من الملأ » . والقارئ لا شك يلمس فى هذا الذى أورده بودلير مبلغ إيمانه بالواجب للفن وشدة تعصبه له .

وننتقل إلى جانب آخر من شخصية بودلير المركبة . فالذى يطلع على أخباره ويقرأ على الأخص مجموعة أشعاره ، لا يشك فى أن بودلير المستهتر كان فى نفس الوقت متصوفاً . فهو قد جمع بين ما كان فى أبيه من طبيعة وثنية ؛ وبين ما كانت عليه أمه من روح مسيحية . وهو فى حبه للجمال لم يكن بأقل منه حباً للخير . والقارئ لأوصافه المتوهجة للرذيلة يحس أنه يتعذب بنارها أكثر مما يتلذذ بها . وأنها ليست له بالمستقر ، ولكنها المطهر . فانغماسه فى الرذيلة إنما هو حركة اليائس وطلب للنسيان وضرب من الانتحار ، وإلا فهو أشد الناس شعوراً بما تتورط فيه الحياة الدنيا من إسفاف وما تجره على النفس والجسم من تلويث :

« اللهم هبنى القوة والشجاعة

« فأنظر فى قلبى وجسمى بلا اشمئزاز »

ومن يقرأ كلام بودلير فى مذكراته الخاصة عن المتعة الجسدية ، وما يعقده من شبه بينها وبين التعذيب والعملية الجراحية ؛ يدرك أن شهواته ذهنية أكثر منها جسدية . وجملة القول فى مثله ؛ أنه رجل من أهل المعانى مغرق فى هوة المادة يتخبط فيها وطرفه شاخص إلى السماء . ومثل هذه الطبيعة المزدوجة ، مع تفززها إلى اللذة لا تنتهى قط عندها ولا تجمد عليها ، بل لا تزال تذكر أغانى المهد وتدليل الأم وتتطلع إلى الحب الصادق الرفيع .

ملاك الخير

ربة الحب البيضاء

ما برح بودلير منذ صباه الأول ذا شهوة منهومة إلى العطف والحنان . فلما أخطأه الحنان أو توهم أنه أخطأه ارتمى فى أحضان الرذيلة يلتمس فيها من الحنان بديلا. وفى رسالة من رسائل بودلير الأخيرة إلى أمه يشير إلى هذا الذى ترتب على حرمانه وهو فتى من كنفها وحنانها إذ يقول : « تركت المنزل آبقاً ؛ فكنت منذ ذلك الحين مقصياً مهجوراً ، فانصرف كل هيامى إلى اللذات ودوام الغواية. . . » ولقد بلغت هذه اللذات قمتها فى جان ديفال ، فذاق حلوها ومرها وعرف نشوتها وخمارها . ثم أخذ المر يغلب على الحلو ، وزاد الخمار على النشوة . وفعل الزمن والإسراف فعله فى الجارية المعشوقة ، فلم تعد تلك « الربة السوداء » التى عهدناها . لقد أدركها الكبر ، وذهب غيدها وكثف جسمها وثقلت نهضتها ، ثم هى اليوم أشنع ما رآها سوقية ، وأقبح رذيلة ، وأمعن كذباً ، وأنكى شرا .

فأخذ بودلير يكره عشرتها ، وصار عزمه يقوى على فرقتها . وساعد على ذلك أنه وجد أخاً له فى الروح هو الشاعر القصصى الأمريكى « إدجار بو » . الذى استغرق حواس شاعرنا بالخيال الشارد والصور المفزعة ، فافتتن بمطالعته وشغل بترجمته. يضاف إلى ذلك أنسه بأمه. فإن مدام أوبيك بعد رحلتها البعيدة مع زوجها سفيراً فى تركيا ثم فى إسبانيا قد عادت معه بعد اعتزال الخدمة إلى باريس ، حيث أنعم عليه الإمبراطور نابليون الثالث برتبة الشرف (اللجيون دونير) وجعله عضواً فى مجلس الشيوخ . فتجدد اللقاء بين الأم وولدها كما كانا قبل سفرها ، يتلاقيان فى المتاحف

وبخاصة متحف اللاوفر شتاء وفى الحدائق أيام الربيع ولقد تركت هذه المتنزهات ولا ريب أثرها الحلو فى نفسه. فإذا عرضت للقارئ فى رسائله مثل هذه العبارة « لا تحلو باريس إلا فى جلوة الشمس بحدائقها المونقة البديعة » . فليعلم القارئ أن هذه العبارة ليست منه مجرد استحسان فنى ، بل هى تنطوى على شعور عميق شخصى .

وأحس الشاعر بحاجة غامضة — وإن تكن قوية — إلى حياة غير الحياة التى عاشها حتى الآن مع جان . أحس بالحاجة إلى أن يتصل بالمرأة لا عن طريق الجسد وجده بل عن طريق القلب ومبادلة الحب بالحب . إنه ينشد الحبيبة لا الشريكة فى المنكر . لقد سم هذا المنظر ، سئم مشهده المتكرر وأنى وحيثما ذهب فى « رحلته » :

« كل ما استرعى منا العيون
« دون تكلف للبحث والطلب
« فى حيثما نظر الناظرون
« ومن أعلى إلى أسفل طبقات الدرج المشئوم
« المعصية الأولى ، معصية الأبد » .
« تتراءى بمنظرها المتكرر المشئوم » .

أجل ، لقد طوى بودلير صفحة العشق السوداء ، وفتح بيد رفيقة مرتجفة صفحة بيضاء . وفى هذه الصفحة تألقت وجوه ساذجة باسمة ، فيها طيبة ونقاء ، وعليها مسحة السماء .

فثمة الآنسة مارى دوبرين Marie Daubrun الممثلة الناشئة ، جميلة ، حلوة الطباع ، صادقة الحياة من ذوات الصون والعفاف ، تعول والديها الفقيرين المريضين بالعمل الشريف ، وتعود متعبة آخر الليل

فترعاها وتسهر عليهما . وفيها نظم بودلير « أنشودة الخريف » وعرف أول ما عرف الحب العذرى .

وهناك مارى أخرى ، لا نعلم من أمرها شيئاً إلا وقوفها نموذجاً حيا للرسامين طلباً للعيش . ويظهر من خطاب بودلير إليها أنها زهدت فى صناعتها بسببه ، وأنه فاتحها بحبه فهاج شجونها ولكن لغيره . فمضت تحدثه شاخصة العينين حالمة بما يشغل قلبها . تحدثه عن الرجل الآخر الذى استأثر بلبها ، واختصته دون الرجال بحبها ، فهى له خالصة الود ، حافظة للعهد . وسكرت حواس بودلير وهو يسمع حديثاً كان فى اعتقاده قبل اليوم حديث خرافة . فهو يهتف بها : « كونى كذلك دائماً واحرصى أشد الحرص على هذا التفانى فى الحب الذى خلع عليك الجمال كله والسعادة كلها » وإذا إعجابه الشديد بهذا التفانى يدفعه إلى أن يتمناه ويريده لنفسه « عودى ، أضرع إليك ، عودى إلىّ . سألزم نفسى الترفق والتواضع فى رغائبى ، وأشواقى » . ويردد فى حرارة : « لا تخشى شيئاً ، إنك موضوع عبادتى ، وعزيزٌ على تدنيسك . . . إنى أحبك يا مارى ، والذى أحمله لك من الحب منزه مثل حب المسيحى للرب . إنه حب لا كالحب . . . فلا تنعتى بهذا الاسم الشائع البشرى — الموصوم فى أكثر الأحايين بالخزى — هذه العبادة الروحية الخفية السر ، هذه الجاذبية الحلوة الطاهرة التى تقرن روحى بروحك على الرغم منك . . . لقد هدتنى عيناك إلى سعادة الروح بكل ما فيها من لطائف وكمالات . . . أنت من نفسى شطرها الفائض من جوهر روحانى . . . بك يا مارى أصبح قويا عظيماً ، سأخلدها تخليد " بترارك " لورا ، فكونى ملكى الحارس ، كونى سيدتى العذراء » . ولا يبرح خيال بودلير — وهو يكتب خطابه الطويل — منظر عينيها وفمها وجميع شخصها فائر الحمية مشبوب الانفعال وهى تتحدث إليه حديثها عن رجلها الذى تحبه . فيقول قبل الختام : « سعيد ، سعيد



الزهرة البيضاء . . . مدام سباتييه

الرسام باری Barye

ألف مرة الرجل الذى اخترته بين الرجال ، أنت الراجحة العقل الوافرة الجمال ، أنت الموموقة ذهناً وقلباً وروحاً » .

وسواء أكانت هذه الفتاة أهلا لكل هذا أم غير أهل ، وسواء أكان بودلير مغالياً فيما أظهره أم غير مغال — فإن ورود ما ورد من هذا الخطاب من ألفاظ لا عهد له بها ومعان غريبة عنه ، دليل على أن الشاعر اليوم غيره بالأمس ، وأنه فى طور ثان من حياته ، هو الطور الوجدانى العاطفى .

والمرأة التى يحق أن نسميها عروس شعره فى العهد الجديد هى مدام سباتيه Mme Sabatier وهى المعروفة بمجلسها الذى كان يضم نخبة من الأدباء والفنانين فى عصرها والتى جروا على تسميتها بـ « الرئيسة La Presidente » .

وكان ميلادها فى ستراسبورج سنة ١٨٢١ . وهى السنة التى ولد فيها بودلير ، فهى من لداته . ولا نعلم عن أسرتها ولا عن حداثتها الأولى شيئاً . وأما مبدأ اشتهار أمرها فيرويه الرواة على الوجه الآتى :

كان بعض من يسمونهم « بالشباب الزاهر » وهم الروائى « روجيه دى بوفوار Roger de Beauvoir » والشاعر « ألفرد دى موسيه » والمؤلف المسرحى « ارفرس Arvers » والمالى « هبوليت موسلمان Hippolyte Mosselman وغيرهم من شبان العصر الغطاريف — فى شرفة فندق بيمودان الفاخر كعادتهم يسمرون ويتطلعون ، إذ خرج من مدرسة السباحة القائمة على ضفة النهر ثلاث غوان حسان ، كانت إحداهن تلبس قلنسوة أرجوانية من قلانس البندقية على شعرها الوافر الذهبى ، وكان شعرها مرسلا ولا يزال مبتلا تلتمع الشمس فى ثناياه . فاشرأبت أنظار السادة إلى هذا السرب من شوادن الظباء ، ودعوهن للمنادمة والسمر فاستجبن للدعاء . ولم تلبث ذات القلنسوة الأرجوانية أن وقعت فى قلب المالى « موسلمان » موقع الاستحسان العميق الصادق . وكان شابا صبيحاً ظريفاً محبا للفنون الجميلة ، فاتخذها له صاحبة وجهز لها داراً فاخرة . وكان اسمها إجلاى ولقب الأسرة

سفاتيه أى الإسكافى Aglaé Savatier . فلم يعد الاسم ولا اللقب فى معناه يروقانها . فتسمت « أبولونى » أى شقيقة « أبولون » إله الفن اليافع الوسيم ، وحرفت لقبها فصار سباتيه . فهى منذ ذلك الحين أبولونى سباتيه : Appolinie Sabatier

ومدام سباتيه كما قلنا من الغوانى الحسان . مبتّلة الخلق . ممكورة الأعطاف ، لطيفة الأوصال ، رقراقة البشرة ناعمة ، تجمع إلى نصاعة البياض تورد اللون ، ولا يحتاج خداها إلى صبغ لإذكاء حمرتهما . وشعرها بلون النحاس المجلو مع انعكاسات فى شعاع النور كشذور الذهب . تتألق عيناها النجلاوان بنظرة فيها الركانة والفطنة والخبث البرىء الصبيانى ، ويهفو على شفتيها القرمزيتين ابتسامة ابتهاج عابثة . وكان أصدقاؤها يقولون مخلصين إنها خلقت لتكون مثالا ينقل عنه المثالون . ولم يلبث أن تحقق قولهم ، فقد وقعت عليها عين المثال كليسنجر Clésinger فى ليلة راقصة أقامها الروائى روجيه دى بوفوار ، وهى فى ثوب للسهرة شبه متجردة على المألوف فى مثل هذه الحفلات عند أهل الفنون ، فراعه منها استواء القوام واسترسال الأعطاف وحسن التقطيع . وأخذ عنها تمثاله « المرأة الملدوغة » ويمثلها مضطجعة وهى من لدغة الثعبان تتلوى . وعرض تمثاله فى معرض مايو سنة ١٨٤٧ . ولقد قامت القيامة يومئذ على الفنان ورموه بالتحايل على إظهار الجسم فى أوضاع وحركات تثير الشهوات .

وإذا كنا نذكر ذلك فلأنه مثال من الأمثلة على بدء خروج الفنانين فى ذلك العصر على عادة المدرسة القديمة فى معالجة الصور العارية بتمثيلها فى عالم الخرافة على صورة الربات وجنيات الماء وحوريات الغاب . وانصرافهم إلى الفن الواقعى وما لقيته موجة الفن الواقعى الجديد من احتجاج ومعارضة .

ونحن لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن مدام سباتيه كانت من أشهر الجميلات فى أواسط القرن التاسع عشر : وأنها كانت معروفة لجميع الفنانين :

وكانت لا يكاد يخلو معرض من صورة لها أو تمثال نصفي يمثلها . ولم تكن شهرتها مقصورة على جمالها بل تتعدى ذلك إلى حسن لبسها وأناقة هندامها . فقد كانت لا ترى إلا رافلة في الثياب الفاخرة ، وإن لم تلتزم فيها الزى الشائع التزاماً . فإن أصدقاءها من الفنانين كانوا يبتدعون لها خاصة ما يناسب طرازها من الجمال . وتتفق الأقوال على أنها كانت طيبة القلب بقدر ما كانت جميلة ، وأنها في حيثما طلعت أشاعت حولها السعادة والبهجة . فلا غرو أن أصبح جناحها الذى تسكنه فى شارع فروشوت Frochot ملتقى الأعلام فى عالمى الفن والأدب يسمرون عندها أيام الأحد ، نذكر منهم شاعرنا بودلير ، والشاعر الناثر الإبداعى تيوفيل جوتيه والروائى المعروف بعمق تحليله وبلاغة أسلوبه « جوستاف فلوبير » والمنشئ المجدد ذى التفانين الغريبة « باربى دورفلى » والقصصى « أرنست فايدو » والأديب الرحالة « مكسيم دى كامب » والمثال « كليسنجر » والمصور « ميسونير » وغيرهم .

ومما كان يحبب هؤلاء الرجال فى مجلس مدام سباتيه أنها كانت على غير المعهود فى غانيات المجالس لا تكلفهم دوام الاهتمام بها ولا تنتظر من كل رجل أن يتغزل بحسنها . فكانوا عندها على سجيتهم ، إن شاءوا تبسطوا فى السمر — وكثيراً ما كان يخرج به جوتيه إلى فاحش المجون — وإن شاءوا خاضوا فى المسائل الجدية العويصة ، فلا يثقل نقاشهم عليها ولا تحاول أن تصرفهم عنها إلى الموضوعات التافهة أو الأخبار الشخصية . ثم إنها مع إقرار الجميع لها بالجمال واعتمادها فى الحياة عليه كانت بعيدة كل البعد عن الخيلاء والعجب . وكانت رحيبة القلب ، لا تضيق بأخلاق أصحابها ولا تريدهم على غير طباعهم . ولم تفكر فى إبان نعمتها أن تقبض يدها وتدخر لمقبل أيامها وخريف حياتها . ولما أخذت زهوتها فى الذبول ونقص حظها من غضارة الجمال فقل معه نصيبها من العشق والمال . لم يسقط فى

يدها ولم تعدم بهجتها . لقد باعت أثاثها الفاخر ونفائس صورها ورياشها ، وعمدت إلى البساطة فى زينتها وعيشتها ، وانتقلت إلى شقة أرضية لطيفة الأثاث مرتبة مهندمة ، ولكنها ظلت فيما سوى ذلك على حالتها تتلقى أصدقاءها بما هو معهود من إشراق طلعتها ومخايل عزتها وطرب غنائها ورنة ضحكتها وفيض طيبتها .

وكان أول تفكير بودلير فيها واشتغاله بها ، على نحو من الإمعان والحرارة أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، فى آخر عام ١٨٥٢ ، أى بعد تسعة شهور من انقطاعه عن عشيقته جان ديفال وعلى أثر خيبته فى حب مارى . فقد استولى عليه شعور أليم بالانفراد والوحشة . وزاد حنينه إلى الأنيس ، إلى إنسانة تفهمه ، إلى من يفيض عليها أفاويق هذا العطف الذى تكتظ به جوانحه ، ويصرف إليها هذه القوة العاطفية التى لم يقدرها من اتصل بهن حتى جان ديفال . وفى هذه الحالة النفسية كان يغشى بودلير فى أيام الأحد مجلس مدام سباتيه فى شارع فروشوت ، وكان فى ذلك الحين ساهماً مربد الوجه . وقد صار لعينيه السوداوين نظرة عميقة شاردة ، وبرز عظم وجنتيه قليلا ، وارتسم على وجهه أخدودان ، ينتهيان بفم دقيق تدلت شفته السفلى فى استخفاف يتعارض وما فى النظرة من جد صارم . وكان عريض الجبهة أجلح إلا من خصلة مهدلة ، قصير الشعر حليق الوجه . وسحنته فى جملتها تبلبل الفكر وتقلق الخاطر .

وكان طويل الصمت . وإذا تكلم فبالمفارقات أو اللذعات الساخرة . وهو على الحالين لا يظهر منه انبساط لحديث القوم وبخاصة حين يهزلون . ومع هذا فإنه كان شديد المواظبة على الحضور . إنه منساق بما يجده من ارتياح فى جوار مدام سباتيه . لقد كانت حجرة استقبالها بمناضدها الأنيقة : ومفارشها البيضاء الناصعة ، وآنيتها الفضية وأزهارها تبدو له جنة السلام ، ومستقر البهجة وبر الأمان ، بعيداً عن فوضى غرفته الموحشة ، وبعيداً عن

مطاردة دائمة . ثم هو يأنس بما فى مدام سباتيه من ذكاء وجمال وطيبة . فكيف به فى وقت هو أشد ما يكون شعوراً بالحاجة إلى الأنس بامرأة تجتمع لها هذه الصفات . وليس يعنينا أن هذه كانت صفات مدام سباتيه حقا ، ولكن الذى يعنينا أنه انكشف لنا فى هذه المناسبة – أكثر مما انكشف فى سائر المناسبات – ما فى بودلير من الرقة ولطافة النفس والإحساس المهذب . لقد وقر فى خلده أنه وجد الخير والجمال ، وجدهما فى مدام سباتيه ، فهو مؤمن بأن فى الدنيا خيراً وجمالا . وهو سعيد كل السعادة بذلك الإيمان . وهذا هو فى درك الهاوية يتطلع إليها ، مؤملا فى الخلاص على يديها ، مستبشراً متهللا متفتح الروح لهذا (الفجر الروحانى) .

« حين يدخل الفجر الأبيض الزاهر ، فى قلب الفاجر .
« ومعه المثل الأعلى المنشود بوخزه الشديد الأليم
« يفعل سره الخفى فى قلب الفاجر فعله القاهر
« فإذا فى البهيم الهامد يستيقظ ملكُ كريم

* * *

« وإذا السموات العلية الروحانية
« ينفتح فلكها المكور البعيد المنال
« غائراً سحيقاً ، له ما للهاوية من جاذبية
« للصريع الذى لا يزال متألماً حالماً بالكمال

* * *

« كذلك – يا ربتى الحبيبة ، يا ذات الطهر والصفاء –

« على البقايا الداخنة من ليالى العربدة الحرقاء
« تهفو أمام عيني الشاخصة فى الفضاء
« ذكراك وضاءة زاهرة ساحرة بغير انتهاء

* * *

« فى وجه الشمس تصبح نيران الشموع كابية كامدة
« كذلك ذكراك على الدوام ظافرة غالبة
« أيتها الروح المنيرة ! أيتها الشمس الخالدة ! »

ولكن الشاعر لم يجرؤ على إظهار حبه ، والتغني بشعره إلى موحيته ، بل كان يبعث بهذه المقطوعات الواحدة بعد الأخرى غفلا من اسمه ، متعمداً فى نسخها تزوير خطه ، راجياً فوق ذلك ألا يطلع عليها سواها.

ولو كان الناظم لهذا الغزل غير بودلير لأنشده « للرئيسة » فى مجلسها على الملأ من أهل الأدب والفن . فهو أحرى وأليق من الكثير من النوادر والنكات التي كان يتفكه بها زميله « تيوفيل جوتيه » فى المجلس ، فيضحك منها القوم أو يتضاحكون وهى فى جملتهم . ولكنه كان مفرط الإحساس ، شديد الحياء ، يكاد يكون ذلك عنده وسواساً ومرضاً . فكيف به وقد غالى بها ، وأعلى قدرها من فرط حبه لها ؟ إنه لا شك يخالجه منها ما يخالج العابد من الهيبة لمعبوده . بل إن هنالك ما هو أدهى من ذلك . ونعنى به كبرياءه . فأخشى ما يخشاه قد لا يكون غضبها ، وإنما هو ضحكها . إن مجرد التفكر فى ذلك يلقى فى روعه الاضطراب والوهل ، ويكاد يبغضه فيما هى عليه من الطرب والجذل. فتراه يذكر انشراحها وطيبتها وعافيتها وجمالها ، ويتساءل ألم تعرف قط أضدادها المخالفة ، ولم تدخل عليها أحوالها المعاكسة . وكأنما يتمنى لها ذلك لتفتح عينها على حاله ، ويضمن عطفها

على آلامه وأوجاله :

« أيها الملاك الطروب ، هل عرفت الألم
« والهوان والسأم ، والتحيب والندم
« والهواجس المبهمة فى الليالى المظلمة
« أيها الملاك الطروب ، هل عرفت الألم ؟

* * *

« أيها الملاك الطيب ، هل عرفت البغضاء
« ودموع الغل الكظيم ، وتربص الثأر فى الليل البهيم
« وقد صرخ الشر ، وبات فينا صاحب النهى والأمر
« أيها الملاك الطيب ، هل عرفت البغضاء ؟

* * *

« أيها الملاك الموفور العافية ، هل عرفت السقم
« وأسوار الملاجئ العالية الشاحبة البياض
« يدب بينها المرضى يجرون القدم
« أيها الملاك الموفور العافية ، هل عرفت السقم ؟

* * *

« أيها الملاك الموفور الجمال ، هل عرفت الذبول
« وخشية المشيب ورهبة الأفول
« وذلة الرضى بالوفاء دون الهوى .
« أيها الملاك الموفور الجمال ، هل عرفت الذبول ؟

* * *

« أيها الملاك السابح فى السعادة والسرور والنور
« فى جسمك الساحر برء للدنف المسحور
« ولكنى يا ملاكى لا أسألك إلا الدعاء المبرور
« أيها الملاك السابح فى السعادة والنور » .

على أن بودلير القديم لم يمت ، وما زالت طبيعته الأخرى تنازعه . إن العشرين سنة — أو نحو ذلك — من حياة العشق الأولى مع جان ديفال تركت أثرها فى طينته ، وهيهات أن يمحى .. . فإذا به بعد حين تبدر منه فى ترنماته الروحية للربة الجديدة نبرات متفرقة فيها بعض الصدى البعيد لأشعاره فى جان ، ثم لم يلبث بعدها أن أطل شيطانها فى قصيدة من أروع قصائده التى يتوجه بها إلى الربة الجديدة « إلى المرحة المفرطة المرح » :

« طلعتك وحركتك وسيماؤك
« تحكى فى ناظرى أجمل الرياض ،
« وضحكتك تشيع فى محياك الوضاء
« مثل النسيم العليل فى صحو السماء

* * *

« وتمرين بالحزين العابر
« فتبهره منك روعة العافية
« تتفجر كالنور الدافق
« من ساعد ومن عاتق

* * *

« والألوان الصخابة المجلجلة

« التى تنثرينها فى زينتك
« تلقى فى روع ناظمى الأشعار
« صورة مرقص من مراقص الأزهار

* * *

« هذه الأثواب الموشاة المتبرجة
« عنوان على نفسك المتفننة
« أيتها المفتونة التى أنا بها مفتون
« إنى أبغضك بقدر ما أهواك

* * *

وأذكر يوماً فى بستان
« درجت أجرر جسمى الحائر
« فأحسست فى الشمس ضحكة ساخر
« تمزق بالنور صدرى الحاسر

* * *

« وأحسست أن الربيع النضير
« فيه الهوان لقلبى الكسير
« فأنزلت بزهرة من الزهرات نقمتى
« جزاء للطبيعة الوقاح على إهانتى

* * *

« كذلك يا شد ما أشتهى

« فى ليلة من الليالات وقد أذنت ساعة اللذات
« أن أدب كاللص الخسيس
« إلى ذخائر حسنك النفيس

* * *

« فأنتقم من جسدك الطروب
« أخدش صدرك الغفور
« وأطعن جنبك المذعور
« طعنة نجلاء جوفاء

* * *

« ثم يا للذة الهوجاء ؟
« حين أهوى على هذه الشفاه الغضة
« الغريرة الباهرة الحلوة
« فأنفث فيك سمى : يا شقيقة نفسى ».

شنشنة نعرفها فى بودلير القديم ، بنفسه المعقدة ، وتوفز أعصابه ، وجنون حسه . وفساد شهوته ، ووقادة خياله . وتهانف شيطانه . وشأن بودلير فى هذا شأن الطبيعة المزدوجة التى يحدثنا عنها علم النفس الحديث ، والتى يعرفها ولا ينسى روعتها من قرءوا للروائى الإنجليزى ستيفنسون قصة «الدكتور جيكل ومستر هايد » .

وأما ما كان من أمر مدام سباتيه ، فإنه لا يمكن أن تكون قد ضلت طويلا معرفة ناظم هذه القصائد الرائعة فيها من بين زائريها . على أنه حين صدرت مجموعة ديوانه وفيها هذه المنظومات شجعه اشتهار أمره ، وما ثار من ضجة حول شعره ، فأهدى إليها نسخة منه ، عنى بتجليدها

لها خاصة . ومعها رقعة كشف القناع فيها عن وجهه . وضمنها شعائر حبه . وفى هذه المرة ترامت المعبودة بين ذراعى العابد . وهى تقول جوابها له : « إنى أسعد النساء . وما رأيتك قط أبدع وأروع فى عينى منك الآن يا صديقى الأجل. فافعل بى ما أنت فاعل. إنى لك بقلبى وعقلى وجوارحى »...

ولكن هيهات ، هيهات أن يتحقق الوصال . لقد قام بينه وبينها مثل عقلة السحر من خيال جان ديفال .

وأدركت المرأة الذكية عقدته النفسية . فافترقا على غير حزازة . وقد ذكرها بعد ذكر من يحييها على البعد ويرجو لقاءها بالروح فى ملكوت الخلد :

« إلى أحب النساء . إلى أجمل النساء
« إلى من ملأت قلبى بالضياء
« إلى الملاك ، إلى المعبود الخالد
« تحيتى فى الخلد

* * *

« إلى التى أشاعت فى حياتى
« روحاً كالهواء المنعش
« إلى التى فى كيانى المجبول من الفناء
« أفرغت طعم البقاء

* * *

« إلى نافحة الطيب الذكى
« تتضوع فى معهد الهوى العذرى

« إلى المجمرة متروكة يتصاعد منها البخور
« خفية تحت جنح الديجور

* * *

« هيهات أيها الحب النزيه الصريح
« أوفيك حقك من الوصف الصحيح
« يا حبة المسك الخافية الثاوية
« فى قرارة نفسى الباقية

* * *

« إلى أحب النساء ، إلى أجمل النساء
« إلى التى كانت بهجتى وصحتى
« إلى الملاك ، إلى المعبود الخالد
« تحيتى فى الخلود » .

ولقد بقيت مدام سباتيه تكن له فى نفسها أطيب المودة . وكانت على عيادته فى مرض موته أحرص النساء بعد أمه .

قاتل نفسه

« أنا الجرح والسكين

« أنا الطاعن والطعين » .

لم يكن لبودلير بعد أن فقد فردوسه إلى جانب فينوس البيضاء ، إلا أن يعود العودة الأخيرة إلى مباءته المألوفة ، إلى الحليلة الساقطة جان ديفال . وما كان له بعد هذه المحاولات من سبيل للحب غير سبيل جان ديفال ، وبخاصة اليوم وهو مريض نضو سقام . إنه لا يستطيع الحياة وحده ، فأعصابه مختلة مشوشة ، وقد كانت تساوره بالليل المخاوف والأوهام ، وهذه المرأة ، جان ديفال رفيق على كل حال . ومع ذلك ، فإن العلاقة بينهما كانت لا تلبث أن تبرم حتى تنقض ، ثم تبرم ثانية لتعود للانتقاض ، فالبون شاسع بين بودلير الشاعر المبدع ، والناثر البليغ ، والناقد الذى عنده مقطع الحق ، ومشعب السداد فى الأدب والتصوير والموسيقى — وصاحب الفضل فى ذلك التنبيه الموفق ، المديد مرمى النظر ، البعيد مطرح الفكر إلى عبقرية « إدجار بو » (Poe) الشاعر الأمريكي ، ومانيه (Manet) الرسام الفرنسى ، وفاجنر (Wagner) الموسيقار الألمانى ، نقول إن البون شاسع بين هذا الرجل ، وبين هذه المرأة البهيمية الشريرة القبيحة السكيرة . ولقد اتخذ بودلير لهما عشا فى أحد الشوارع القديمة القذرة ، فكان بئس العش من دوام الشجار ، فتركها إلى الفندق صادق العزم على العمل ، وتحامل على نفسه ، ولكن خذلته قوته ، لقد حانت ساعة التفكير ، فهو معذب الجسم أرق ، يستعين على الأرق بالمغيبات ، فيزيد على أوجاعه الغثيان والقىء ، وهو يشكو وجع الرأس ، وعسر التنفس ، وقد أصابه احتقان مخى ، ثم لم يلبث أن أبل منه .

وأخيراً سافر بودلير إلى باجيكا لعله يكون أسعد حظا وأوسع رزقاً ، ولكنه صدم فى أمله أفظع صدمة . وفيما هو يزور إحدى الكنائس الأثرية فى « نامور » مع بعض المشتغلين بالأدب والنشر ، خر صريعاً فى صحنها ، وأقاموه فإذا هو مفلوج فى الشقة اليسرى ، وقد اعتقل لسانه ، فحملوه إلى مستشفى فى بروكسل ، وأرسلوا إلى أمه فى باريس (وهى أرملة للمرة الثانية) فجاءت المسكينة على عجل . وطالت الحال بالشاعر فى المستشفى دون أدنى أمل . فنقلوه إلى باريس فى دار من دور المرضى ؛ ولكن المنية — وا أسفاه — لم تعاجله ، وبقى أشهراً ، وكأنما بقى للعبرة ، يجر نصفه المفلوج جرا ، وهو صاحى الذهن يدرك كل ما حوله ، ولكنه إذا أراد العبارة لم يطاوعه النطق . لقد أصيب الشاعر المنطيق فى موضع قوته وإعجازه .

وفى آخر يوم من أغسطس عام ١٨٦٧ أدركت بودلير رحمة الله فقضى نحبه . وهو فى السادسة والأربعين من عمره :

« يا موت ! ... أيها الملاح المحنك ، الموكل بسفر الأرواح ،
« آن الأوان . فارفع المراسى ، وهيئ لنا الرحيل
« مللنا المقام هنا — يا موت ! . . . فعجل الرواح
« وإن يكن — أيها الملاح ! — قد ادلهم
« أمامك البحر والسماء
« فإن نفوسنا التى ألممت بها — يشع منها الضياء » .

الخلاصة

تراءى للقارئ لا محالة فيما عرضناه من سيرة الشاعر ، أن حياته كانت في واقع الأمر مأساة . ويزيد في وقع المأساة أن القدر لم يمهله ، فقد بدأت مأساته منذ أوليات صباه :

« لم تكن أيام صباي إلا الزوبعة القاتمة
« تتخلل ظلامها بعض الدراري الباسمة
« وقد أنزلت الصواعق والأمطار بحديقتي أعظم الضرر
« فلم يبق منها إلا اليسير من يانع الثمر »

لقد عرف بودلير — وهو طفل لم يعدُ الثامنة من عمره — غيرةً هملت المتفجعة العارمة لزواج أمه . فطبعته الغيرة بنزعة للثورة امتدت بعدها إلى سائر حياته . وكان من جراء تفتح عينيه على ما يسميه خيانة أمه ، وخيبة ظنه من كانت مثله الأعلى ، أن مضى كالناقم يحطم مثله العليا في الحياة . فهو من قبل بلوغ العشرين خارجٌ على الدين ، مستهترٌ بالحدود ، مجاهر بالعصيان ، ساخر بالسموات والأرضين . ولكن المتأمل في حقيقة موقفه ولحن كلامه يرى فيه تحدي اليائس وتجديف الثائر ، ويراه أبعد ما يكون عن تلك البرودة المعهودة في منطق الكافرين . وذلك الجفاف في تفلسف المعطلة المنكرين . ومما هو جدير بالاعتبار أن الشاعر نفسه حين جمع هذه الأشعار جمعها تحت عنوان « الثورة » . وحسبنا أن نورد في هذا المعنى مقطوعتين من قصيدة له بعنوان « المتمرد » :

« انقض الملاك المنتقم من السموات العلى كالنسر الكاسر

« وأمسك بجمع يده القوية شعر الملحد الكافر
« وقال وهو يهزه هزا عنيفاً : (الزم الشرع ،
« أنا ملاكك الساهر على خيرك — كذا أريد) »

* * *

« وأنحى بقوته الجبارة عليه — والعقاب بقدر الحب —
« منكلا أشد النكال بهذا المتمرد على طاعة الرب .
« والمتمرد المنكل به لا يفتأ يلتوى ويصيح : (لا أريد) »

كذلك كان بودلير فى هذا الطور منغمساً فى شهوات الجسد إلى أحط الدرك . ولكن ينبغى ألا يفوتنا أن الشهوة هنا أيضا كان يخالطها — فيلهبها — ما فى جحيم نفسه الثائرة من الرغبة فى الحط من المرأة ، والنزول بها إلى مراغة الحمأة . فيعمد إلى التغنى بالساقطات ، وما فى جزيرة ليسبوس من موبقات ، وسائر ما تحسنه الفاجرة من أفانين الغوايات . وفى هذه الفترة من جنون الحس نظم قصائده الرائعة فى جان ديفال « ربة العشق السوداء » كما يقول ، وهى لا شك المعنية بقوله :

« إنى لأستخلص من كل شىء لبابه العجب
« أعطيتنى الوحل فصغت منه الذهب »

ومنذ الثالثة والعشرين ، أصبحت موارد بودلير محدودة ضيقة بعد البحبوحة والسعة . فعرف فوق ما عرف أزمات الضنك والفاقة ، وأعباء الديون وملاحقة الغرماء الدائنين ، وضرورة الكد ، وهوان التكسب بثمار العقل وعصارة القلب . فهو ينظم فى معنى شقاء العيش وثقل تكاليفه ، وحال الذين لم تمن عليهم الحياة ، والطريدين من رحمة الله ، والمصدودين عن سبيل الخير ، والخائبين فيما قصدوا إليه من أمر . ومن ثمة أطلق على

الكثير من أشعار هذه الفترة لفظاً مستحدثاً عن الإنجليزية بمعنى (السوداء) Spleen وهي تشترك جميعاً في لون الأسى ورنة الشجا وطعم المرارة. ولكن الذي يلفتنا ويؤلمنا أكثر من هذا جميعه ما يرين عليه فيها من شعور قاتل بالسأم حتى لا تكاد تخلو قصيدة من لفظه مردداً أكثر من مرة :

« شرّ ما يجنيه على المرء زوال التطلع وانقضاء العجب :
« الملل يستفيض ويستفيض بغير حد استفاضة الأزل »

وفي الثلاثين نشط الشاعر من الهمود الذي ران عليه . وكان الحافز على هذا الابتعاث والنشاط تولعه وتتلمذ بمؤلفات الشاعر الأمريكي « إدجار بو » واهتمامه بنقله والترجمة لسيرته وجهاد حياته . ثم زاد على ذلك مطالعته للفيلسوف السويدي سويدنبورج وتأثره بروحه التصوفية . كما اتفق له في هذا الطور غرامه العاطفي بمدام سباتيه (ربة الحب البيضاء) . وهنا أوفى على التمام والنضج حتى بلغ أوج إنتاجه الأدبي . فهو الثابت اليقين في مواهبه ، البصير بأغراضه ، المستكمل لأدواته . وقد أرصد للأشياء حسه ، وأيقظ إلى مضامين رموزها حدسه ، وفتح لتجاوبها نفسه :

« الطبيعة معبد تكتنفه أسرار الدين
« تصدر عن أعمدته الحية في الحين بعد الحين
« أصوات كالزمزمة بكلمات مختلطة مبهمة
« ويجوس منه الإنسان في غابات من الرموز
« تراعيه ، وتحدق فيه بنظرات أليفة

* * *

« وكما تختلط الأصداء المديدة في الآفاق البعيدة

« فى وحدة غامضة عميقة .
« لها رحابة النهار وشمول الظلام
« كذلك فى معبد الطبيعة
« تتجاوب العطور والألوان والأنغام

* * *

« ومن العطور ما هو كأجسام الأطفال نداوة
« وكالأنغام عذوبة ، والحقول الخضر نضارة
« كما أن منها الداعر المجاهر ، القوى الرائحة الفاغلة القاهر
« كالعنبر والمسك ، وميعة الجاوى ، وعود الهند
« يتضوع ريحها ويمتد
« كاللانهائى بغير حد
« فيطرب النفس ويسكر الحواس » .

* * *

وأما فى الطور الأخير من حياته فقد غلب عليه الوجوم والندم وهو ينظر إلى كر الزمن ، ويستعرض السنين الطويلة التى أضاعها من حياته ويفكر فى قصر المدة الباقية له قبل مماته .

« الفن طويل الشقة ، والزمن قصير المدة » .

وقد أخذه الهول ، وهو يعاين عند قدميه هوة الفناء فاغرة فاها ضاحكة منه ساخرة . ولكن إيمانه بالألم كان يقوى . لقد شقى منذ طفولته ، وشقى حتى فى لذته ، وما كان الألم ليذهب سدى . لقد كان الألم خصباً لعبقريته فى

» ، وهو لا شك الخلاص له فى مماته :

تباركَ يا ربَّ سوطُ النِّقَمْ
تباركَ يا أبتاهُ الألمْ
فلم تكُ نفسيَ بين يديكْ
بأُعجوبة من هوانٍ لديكْ
تعاليتَ فيما اقتضت حكمتكْ
وقُدِّستَ فيما ارتضت رحمتكْ

الخاتمة

مكانة بودلير وأثره فى الأدب

حين ظهر « ديوان أزاهير الشر » قال كبير شعراء العصر وقتئذ « فيكتور هيجو » عن صاحبه إنه أحدث فى الشعر انتفاضة جديدة . ولا نبالغ إذا قلنا : إنه لم تنقض على وفاة بودلير عشر سنوات حتى أخذ يتأثر الشعر الفرنسى كله تأثراً مباشراً أو غير مباشر بهذه الانتفاضة التى سرت رجفتها إلى نخاع العديد من الأجيال مع اختلاف فى مدى الاعتراف بذلك التأثر والتسليم به .

والسبب فى أن تأثير بودلير لم يظهر حق ظهوره إلا بعد وفاته ، يرجع إلى ما كان ينقصه من الجرأة على فرض نفسه على من حوله من أبناء عصره ؛ وإلى طبيعة رسالته الفنية التى كانت من العمق والصدق غامضة متناقضة غير محدودة ، ومن ثمة لم يتح لشاعرنا فى وسطه أن يحشد تلك القوة المتولدة عن الإعجاب والفهم ، ويخلق منها ذلك الجو الجماعى الذى يكفل للفنان فى حياته عصبية من الأنصار والمريدين المتأثرين . وأيا كانت الحال ، فإن تأثير بودلير بعد وفاته كان شديداً ، كما كان مطرد الزيادة . ويلاحظ أن تأثير بودلير يتولد فى النفوس خفيا أول الأمر ، وقد يظل خفيا ، وعلى غير وعى من المتأثرين به بحكم كونهم من متوسطى الذكاء أو بحكم شهرتهم التى تحول دون اعترافهم بفضل بودلير عليهم ولعل أول من سيطر عليهم بودلير حق السيطرة وظهرت آثار تأثيره فيهم ظهورها المبين هو الشاعر المشهور «بول فرلين Paul Verlaine» . ومن عجائب الحياة أن هذا بعينه ما جعله يقتصد فى الكلام عمن كان له القدوة والإمام فلم يأت فى وصفه — حين وصفه — إلا بالعبارات المبتذلة على كل لسان : « كان بودلير كاتباً

مبرزاً وشاعراً كبيراً ، ولا حاجة بنا إلى مزيد من القول لتوكيد ذلك . وأن النصاعة العجيبة فى أسلوبه وشعره البراق المتين السلس ، وخياله القوى النافذ التأثير ، وفوق هذا جميعه تلك الحساسية المرهفة دائماً العميقة فى أغلب الأحيان القاسية فى بعض الأحيان ، كل هذه الصفات تكفل لشارل بودلير مكانه بين صفوة مفاخر الأدب فى زماننا ، مع استثناء بلزاك Balzac وفيكتور هيجو بطبيعة الحال .

وعلى العكس من ذلك موقف الفتى الشاعر « أرثر رامبو » Arthur Rimbaud صديق فرلين ، فقد كان أول من حيا بودلير باللهجة التى تناسب عظمة شأنه وحقيقة مقدرته ، فهو رب من الأرباب وأول أهل البصيرة والكشف ، وملك الشعراء .

ونذكر ممن تأثروا بشاعرنا قطباً من أقطاب الرمزية قبل هذين وهو : إسطفان مالارميه "Stéphane Mallarmé" الذى يذكر قراؤه — ولا ريب — بهذه المناسبة قصيدته « قبر شارل بودلير » .

بيد أن الرمزية الغامضة عند مالارميه قد فتحت للكثيرين من الشعراء بعده الطريق على مصراعيه لاتخاذ الرمزية وسيلة سهلة ميسورة للتمويه على من يسهل التمويه عليهم من القراء باصطناع لهجة مبهمة يعتمد الشاعر فيها على تأثير كل لفظ فى ذاته والجمع بين هذه الألفاظ فى تراكيب تخلب القارئ وتروعه دون أن يحصل ما وراءها .

ولقد امتد تأثير شاعرنا ، بودلير ، رائد الرمزية من حيث المضامين المعنوية إلى الكثيرين بعد هؤلاء سواء جاء تأثيره مباشراً أو عن طريق هؤلاء أنفسهم . ولقد نوه بهذا التأثير أكثر من ناقد شهير ،حتى من بين من كان يغلب عليهم الفتور من ناحيته ، ومنهم « جيل ليمتر Jules Lemaitre » الذى لم يسعه مع ذلك إلا أن يقول : « إن بودلير يتوافر لديه بقدر كبير ما ينقص غيره ممن يكبرونه ويتقدمون عليه ، ونعنى به ذلك الإحساس وذلك الاهتمام ،

وذلك الفزع من السر الغامض الذى يكتنفنا » . . .

بيد أنه ليس هنالك أكثر دلالة على مدى تأثير « بودلير » فى الزمن الأخير من كلمة للناقد الشهير «برونتير "Brunetière" » أرسلها فى لهجة حانقة كاللعنة الساخطة المحرقة . ونحن إذ نثبتها هنا ، لا نثبتها من قبيل الموافقة ، بل باعتبارها — كما أسلفنا القول — أقوى الشواهد الناطقة القاطعة على ما بلغه شاعرنا من استفحال الشأن وغلبة السلطان فى الأزمنة الحديثة .

« إن بودلير أحد الأصنام المعبودة فى هذا الزمن وهو أشبه ما يكون بصنم شرقى فظيع شائه الصورة وقد زاد فى شناعته الطبيعية ما أضفى عليه من الأصباغ الغريبة . ومعبد هذا الصنم المعبود من أكثر المعابد زحاماً » .

أما اليوم فالفكرة السائدة عند النقاد وعند القراء على السواء ، هى أنه — من غير أدنى مبالغة — يمكن القول فى صراحة وثقة ، أن الشعر الفرنسى فى جملته يمكن تقسيمه إلى قسمين : ما قبل بودلير ، وما بعد بودلير . وهذا غاية ما يمكن أن يقال للتعبير عما أصبح لشاعرنا من المكانة والتأثير الذى امتد إلى الأدب العالمى عبر العصور .

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٤٨٧١
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧٧٢-٧	ISBN

١ / ٨٦ / ٢٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)